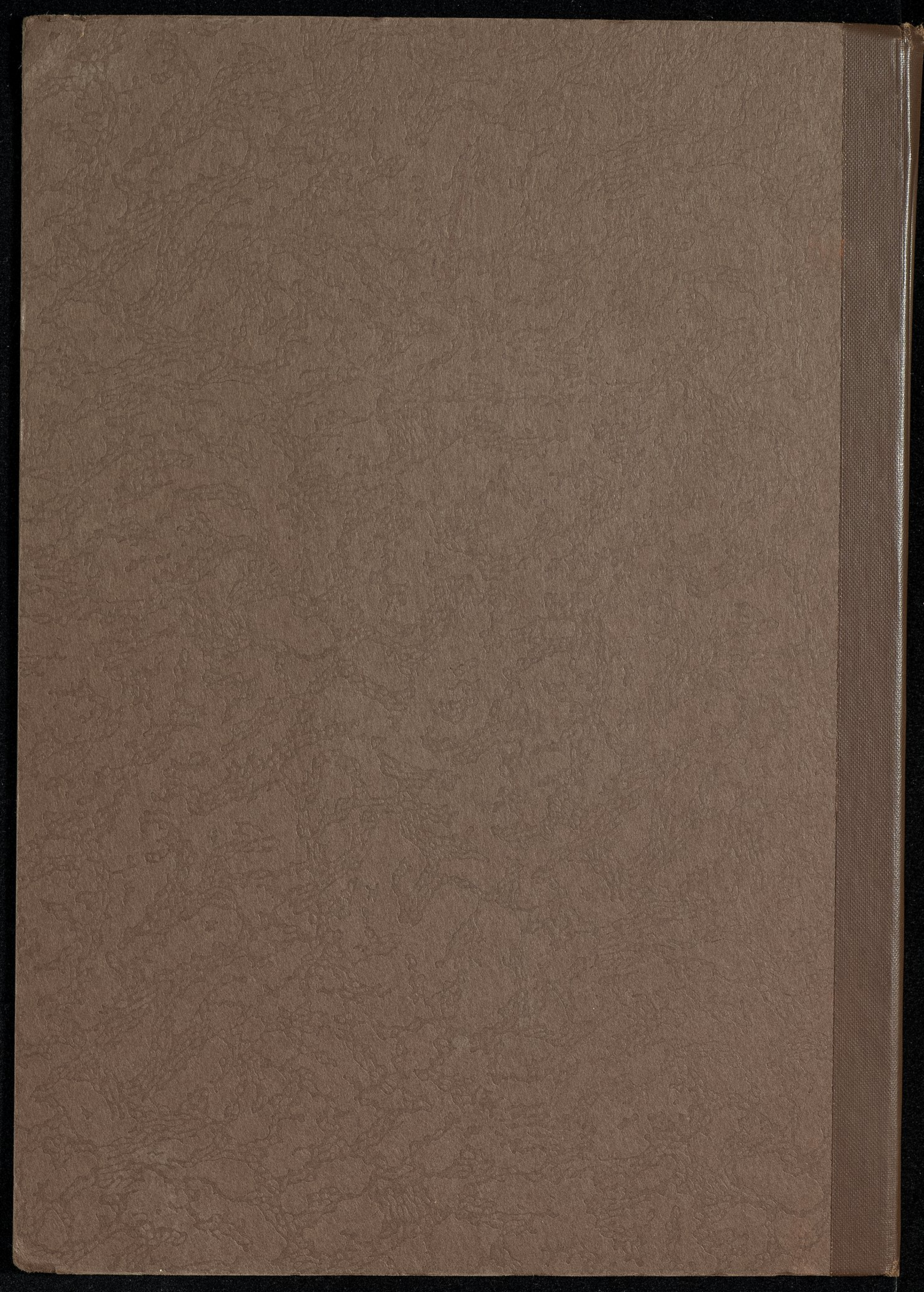
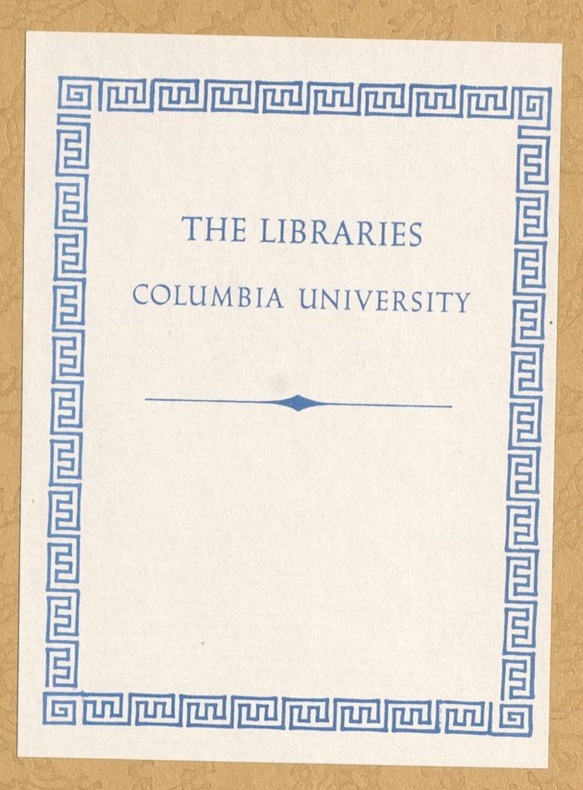
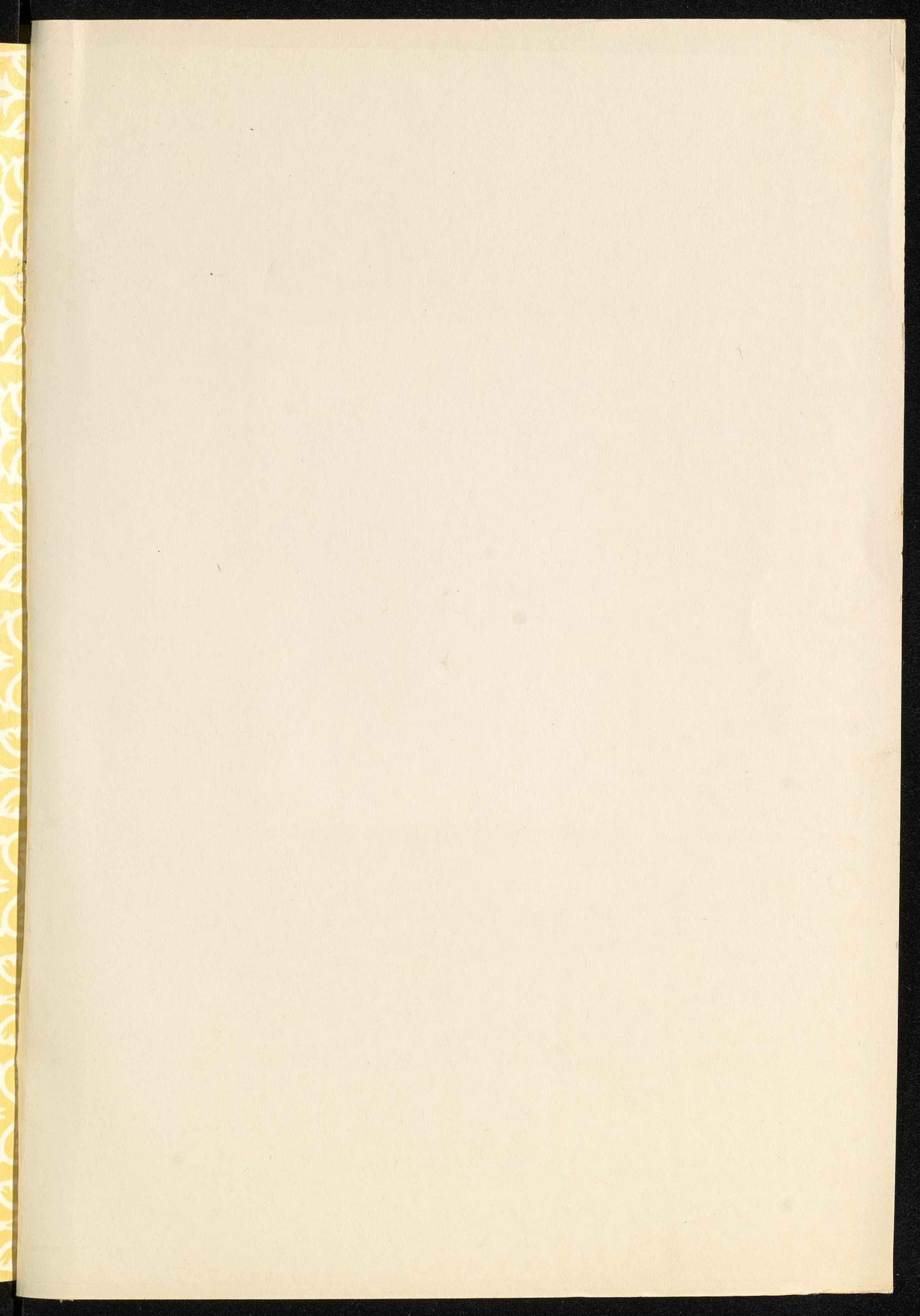
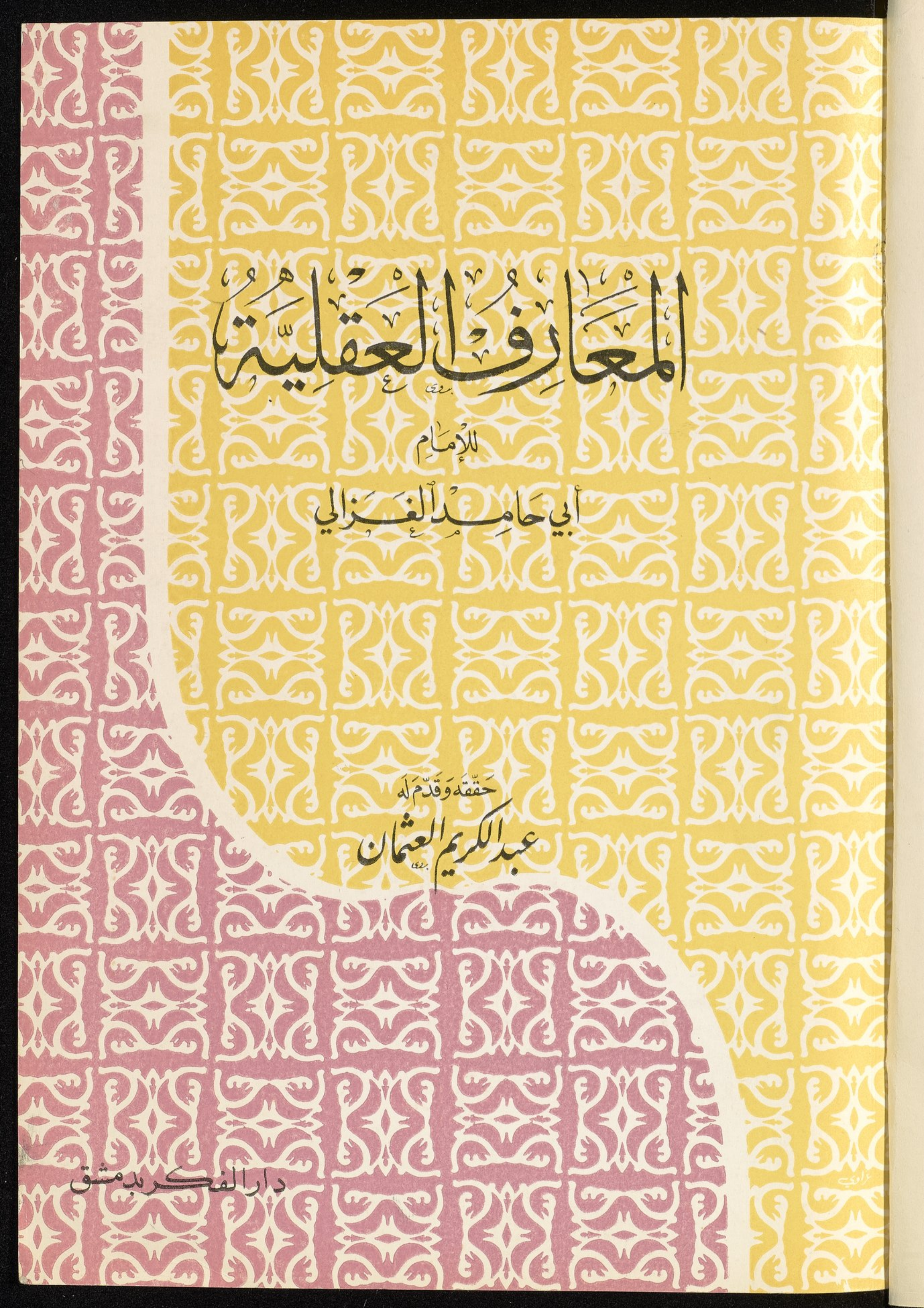


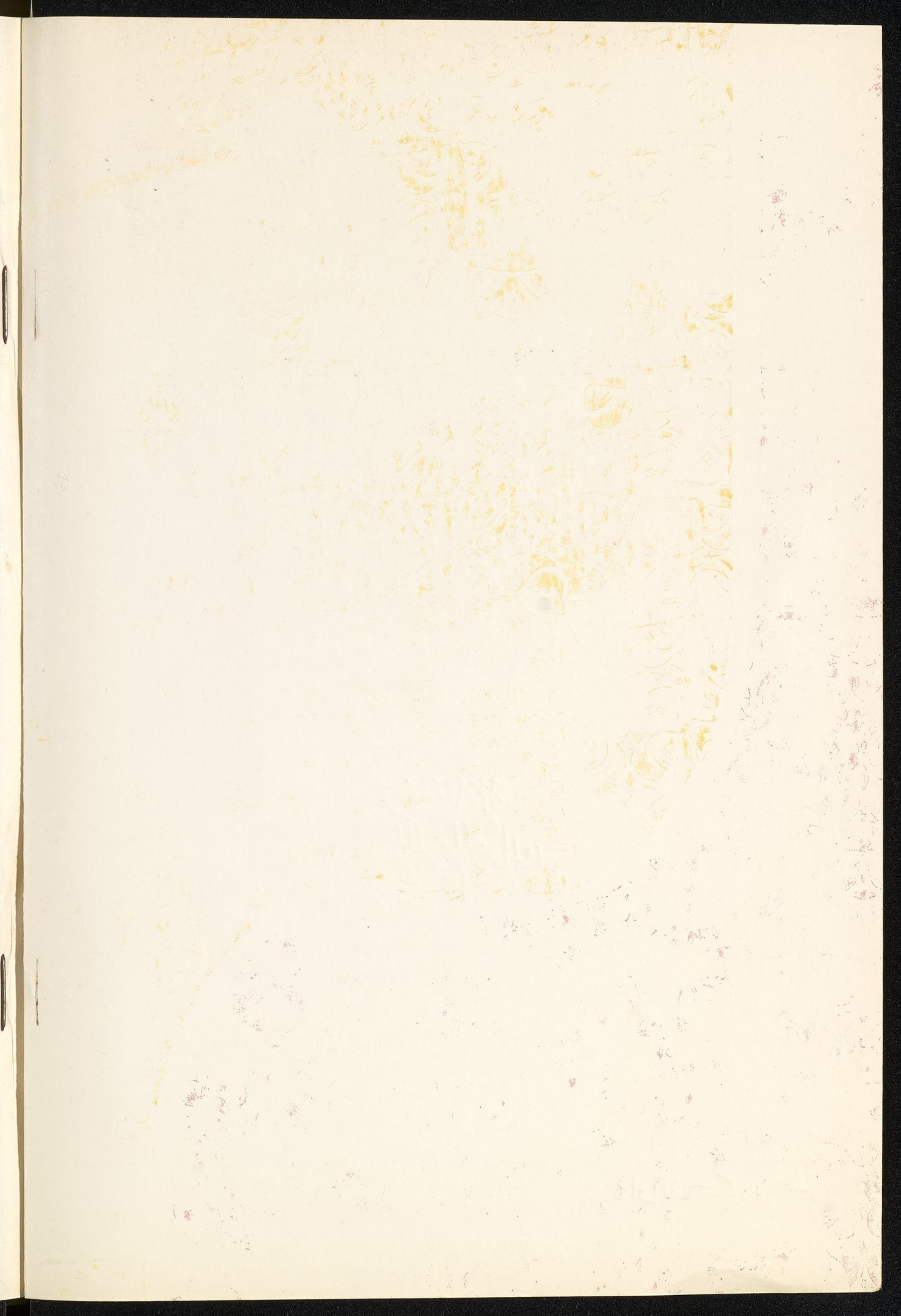

Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.


THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY






المعارف العقلية
للإمام
أبي حامد الغزالي
حققه وقدم له
عبد الكريم العثمان
دار الفكر بدمشق



المعارف العقلية

للإمام

أبي حامد الغزالي

حققه وقدم له

عبد الكريم العثمان

دار الفكر بدمشق

الطّبعةُ الأُولىٰ
١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أين يوضع المعارف العقلية بين كتب الغزالي ؟

بين أيدينا كتاب المعارف العقلية ، وهو من الرسائل التي لم تنشر بعد للامام الغزالي ، وقد كان هذا الكتاب موضع جدل ونقاش بين الأقدمين ، فقد ذكر البعض أنه من الكتب المضنون بها على غير أهلها ، بينما قال البعض إنما في الكتاب موضوع للعامة لأنه يصرح في كتب أخرى نص على أنها للعامة بأكثر مما يصرح في هذا الكتاب . وقد أشار ابن طفيل في مقدمة « حي بن يقظان » إلى هذا الجدل ، إذ قال : « وقد ذكر — أي الغزالي — في كتاب الجواهر — يعني جواهر القرآن [1] — أن له كتباً مضنوناً بها على غير أهلها ، وأنه ضمنها صريح الحق . ولم يصل إلى الاندلس في علمنا منها شيء ، بل وصلت كتب يزعم بعض

(١) جواهر القرآن للغزالي وقد طبع في مكة سنة ١٣٠٢ هـ ، وفي بمباي سنة ١٣١١ هـ ، وفي القاهرة سنة ١٣٢٠ و ١٣٢٩ و ١٣٥٢ . انظر مؤلفات الغزالي ، لعبد الرحمن بدوي ص ١٤٥ وكتاب : Bouyges
Essai de Chronologie des oeuvres de Al - Ghazali P. 50

الناس أنها هي تلك المضنون بها وليس الأمر كذلك . وتلك الكتب هي كتاب المعارف العقلية وكتاب النفخ والتسوية (١) ومسائل مجموعة سواها . وهذه الكتب وإن كانت فيها إشارات فانها لاتتضمن عظيم زيادة في الكشف على ماهو مثبوت في كتبه المشهورة ، وقد يوجد في كتاب المقصد الأسنى (٢) ماهو أغمض مما في تلك وقد صرح هو بأن كتاب المقصد الأسنى ليس مضنوناً به (٣) فيلزم من ذلك أن هذه الكتب الواصلة ليست هي المضنون بها (٤) ».

إن هذه المناقشة التي ثارت بين الأقدمين تتطلب منا أن نلقي نظرة على ترتيب الغزالي لدرجات المعرفة وتصنيفه لمراتب العلوم ، كما تتطلب منا أيضاً أن نلقي نظرة على ماقاله في جواهر القرآن ، مما اعتمد عليه ابن طفيل في مناقشته لهذا الموضوع ، وأخيراً لابد من أن نعرض بشكل موجز لأبحاث الكتاب حتى نرى أين يمكن أن يوضع هذا الكتاب في سلسلة مؤلفات الغزالي .

مراتب المعرفه عند الغزالي

المعرفة عند الغزالي على درجات ومراتب ،ولذلك فان العلوم تأخذ عنده قيماً مختلفة في تصنيفها أو الحكم عليها .

وقد عرض الغزالي لتصنيف العلوم في مواضع متعددة ، وفي أكثر من مرحلة من مراحل تطوره الفكري ، لذلك فانه يبدو أحياناً محتذياً حذو من سبقه من الفلاسفة في هذا الموضوع وذلك في المرحلة الاولى من حياته الفكرية ، بينما يبدو في مرحلة النضج وقد كون لنفسه رأياً خاصاً في المعرفة والعلوم .

أما في مرحلة تأثره بالفلاسفة فقد صنف العلوم إلى علوم نظرية وعلوم عملية ،

---

(١) ويسمى ايضاً باسم المضنون الصغير .

(٢) المقصد الاسنى شرح اسماء الله الحسنى ، للغزالي .

(٣) انظر جواهر القرآن ص٥٧

(٤) ابن طفيل ، ص ١١ حي بن يقظان ، مطبعة النيل ١٣٢٢ ـ ١٩٠٤

تشمل الأولى الرياضيات والطبيعيات والإلهيات ، بينما تشمل الأخرى الأخـــلاق والسياسة وكل مايتعلق بالحكمة العملية .

أما تصنيفه للعلوم في الإحياء وقد كان أحد كتب مابعد العزلة أي مرحـــلة النضج، فقد جاء على أشكال متعددة أهمها: أن العلوم على نوعين أساسيين، علوم المكاشفة وعلوم المعاملة . تختص الأولى بما يتعلق بإدراك ماهيـات الأمور والمجردات التي تحتجب عن الحواس ولا تعرف إلا بالكشف ، بينما يتفرع عن النوع الثاني علوم الظاهر التي تختص بالجوارح وعلوم الباطن التي تتعلق بأعمال القلوب والنفوس .

ويلاحظ أن علوم المكاشفة في رأي الغزالي مما لا يتهيأ لأي إنسان أن يصل إلى مرتبتها لأنها تحتاج إلى استعداد خاص [1] .

وتبدو نزعة الغزالي إلى تمييز بعض أنواع المعرفة وقصرها على الخاصة بصورة واضحة في جواهر القرآن، وهذا ماأشار اليه ابن طفيل حين أشار إلى الجدل حول كون المعارف العقلية من كتب العامة أو من كتب الخاصة . ولذلك فاننا سنقف عند ما كتبه في الجواهر وقفة خاصة .

مع جواهر القرآن :

كان الغزالي يتحدث في الجواهر عن علوم القرآن وما يتعلق به من معـارف، فذكر أن « مجامع ماتنطوي عليه سور القرآن وآياتـه لاتخرج عن عشرة أنواع وهي : ذكر الذات ، وذكر الصفات ، وذكر الأفعال ، وذكر المعاد ، وذكر الصراط المستقيم ، وذكر أحوال الأولياء ، وذكر أحوال الأعداء ،وذكر محاجة الكفار ،وذكر حدود الأحكام »[2] .

---

(١) انظر مقدمة مقاصد الفلاسفة ، ومقدمة المعارج للغزالي ، والإحياء ، ومقدمة كتابنا، الدراسات النفسية عند المسلمين .

(٢) جواهر القرآن ص ٢١

وانتقل بعد ذلك إلى بيان أن العلوم كلها تتشعب عن هذه الأقسام العشرة ، ولكنها على مراتب وذلك لأن حقائق هذه الأقسام كما يقول الغزالي: لها « أسرار وجواهر ولها أصداف ، والصدف أول مايظهر ثم يقف بعض الواصلين إلى الصدف على الصدف وبعضهم يفتق الصدف ويطالع الدر »[1] .

أما علوم الصدف في جواهر القرآن فهي: اللغة العربية بفروعها المختلفة ، وأما علوم اللباب فانها على طبقتين ، يطلق على السفلى منها اسم علوم التوابع ، وتشمل : قصص القرآن ، ومحاجة الكفار ، وحدود الأحكام ، وعلوم الكلام والفقه والحديث ... ويطلق على الطبقة العليا اسم علوم اللباب ، وهي تحوي على الأصول المهمة التي تتعلق بالله ، واليوم الآخر ، والعلم بتزكية النفوس « وأشرف هذه العلوم مايتعلق بالعلم بالله ، وهي على طبقات ثلاث هي: العلم بالذات ، ثم العلم بالصفات، وأخيراً العلم بالأفعال »[2] .

وهذه العلوم الأخيرة لايمكن أن تشرح للناس كافة ، وإنما يتوصل اليها الخاصة الذين تؤلف لهم كتب لايطلع عليها غيرهم، وقد أشار إلى ذلك بقوله : « وهذه العلوم الأربعة أعني ، علم الذات ، والصفات ، والأفعال ، وعلم المعاد، أودعنا من أوائله ومجامعه القدر الذي رزقنا منه ، مع قصر العمر وكثرة الشواغل والآفات وقلة الأعوان والرفقاء بعض التصانيف ، لكننا لم نظهره فإنه يكل عنه أكثر الأفهام ويستضر به الضعفاء ، وهم أكثر المترسمين بالعلم . بل لايصلح إظهاره إلا على من اتقن علم الظاهر ، وسلك في قمع الصفات المذمومة من النفس وطرق المجاهدة حتى ارتاضت نفسه واستقامت على سواء السبيل ، فلم يبق له حظ في الدنيا ، ولم يبق له طلب إلا الحق ، ورزق مع ذلك فطنة وقريحة منقادة وذكاءً بليغاً وفهماً صافياً .

---

(١) جواهر القرآن ص ٢١

(٢) جواهر القرآن ص ٢٥ـ٢٩

وحرام على من يقع ذلك الكتاب بيده أن يظهره إلا على من استجمع هذه الصفات»[1]

نوعان من الكتب :

ويتضح لنا من ذلك كله ، أن الغزالي أودع ماتوصل اليه من معارف وحقائق نوعين من الكتب ، ألف النوع الأول للعامة الذين يستند ايمانهم على الخبر ، وهو لا يصرح لهم فيها بالحقيقة كلها ، بالقدر الذي يطيقونه ، والمقدار الذي يرى أن الشرع كلفهم به ، وألف النوع الثاني من الكتب للخاصة ، وهم العارفون الذين يشهدون الحق دون حجاب ، وكشف لهم فيها عن الحقائق ، ولكنه على ماذكرنا وضع لقراء هذه الكتب شروطاً خاصة أهمها :

— إتقان علم الظاهر .

— التخلي عن حظوظ الدنيا .

— الاستقامة على سواء السبيل .

— الإعراض عن كل غاية إلا طلب الحق .

— امتلاك قدر معين من الفطنة والذكاء والقريحة النافذة والفهم الصحيح .

مرة اخرى اين نضع المعارف العقلية ؟

وهنا يحق لنا أن نتساءل مرة أخرى مع ابن طفيل وغيره من المهتمين بفكر الغزالي ، هل كتاب المعارف العقلية من الكتب التي ألفها للخاصة ؟ وهل يصرح فيه بما لم يصرح به في غيره من الكتب التي نص أنه كتبها للعامة ؟ إن هذا يتطلب منا أن نلقي نظرة سريعة على هذا الكتاب والمشاكل التي عرض لها فيه .

قدم الغزالي للكتاب بذكر الغاية من تأليفه وهي : معرفة حقيقة النطق ، والتمييز بين القول والكلام ، وذلك لأن الله — كما يقول — إنما أبدع الانسان

---

(١) جواهر القرآن ٣٠ـ٣١

ليكون نموذجاً من العالم الكبير وليعبر عنه بالعالم الأصغر ، واشرف ماتميز بـــه الانسان عن باقي الحقائق إنما هو النطق ، بل إن الانسانية هي النطق ولكن الكثيرين لايميزون بين النطق وبين القول والكلام ، بل يظنون أن هذه الكلمات أسماء لمعنى واحد . ويرى الغزالي أن الخلط بين هذه المعاني أوقع الكثيرين في أخطاء عديدة، كأن يقولوا للباري ناطق ، وللجرم الفلكي قائل ... ولذلك فإنه في هذا الكتاب يوضح المقصود من كل معنى من هـــذه المعاني ، حتى يكون ذلك معتصماً لذوي الألباب ، والحقيقة انه يقصد من وراء ذلك ،التمييز بين الذات الآلهية وبـــين الموجودات ، وخاصة الانسان .

وقد قسم الكتاب إلى خمسة أبواب على النحو التالي :

الباب الأول في النطق

〃 الثاني 〃 الكلام

〃 الثالث 〃 القول

〃 الرابع 〃 الكتابة

〃 الخامس 〃 الغرض المطلوب

وقد جاء الباب الأول في خمسة فصول : النطق ، ماهية النطق ،في القوة النامية والمصورة من قوى النفس ، في أن النطق صفة الخلق لاصفة الخـــالق ، في أن الانسان يكتسب النطق من إفاضة العقل .

أما الباب الثاني فقد تضمن فصلين ، عرض في أولهما للكلام وماهيته وحقيقته، وأنه يطلق في حق الباري وفي حق الآدميين ، وبين في الفصل الثاني أن الله هو المتكلم الحقيقي الذي لا انقطاع لكلامه ولا مبدل له ، وانه لايتكلم بآلة .

وفي الباب الثالث ثلاثة فصول على النحو التالى : في شرح القول وانه لطيف غير ثابت في الهواء ، في غرض القول وحقيقته ، أما ثالث هذه الفصول فإنـــه لبيان أن قول الله عز وجل ليس إلا إفاضة المعاني على العقول بحسب قوتها .

وجاء الباب الرابع في فصلين : الأول في كتابة المخلوقات وحاجة الانسان إلى ذلك ، والثاني في بيان الكتابة المنسوبة إلى الله تعالى وأحوال كتبه ومراتب كتابته سبحانه وتعالى .

وخص الباب الخامس والاخير ، ببيان الغرض المطلوب من الكتاب ، وجعله في خمسة فصول : عرض في الاول منها للحروف وهل هي قديمة أو حادثة ، وان كلام الله صفة ذاته لا تركيب عبارة ، وتناول في الفصل الثاني اختلاف الناس في العقل والبصيرة والفهم ، وبين في الثالث أن المراد من شرح القول والنطق والكلام تنبيه الغافلين المرتابين في كلام الله وكتابه والترقي الى تقرير القول في أشكال الحروف وحقائقها .

أما في الفصل الرابع فقد شرح معنى القدم والقديم ، وبين أن القدم قد يكون بالزمان ، أو بالشرف ، أو بالمرتبة ، أو بالمكانة أو بالذات . وختم الكتاب بالفصل الخامس الذي بين فيه بأنه لما رأى اختلاف الناس في حروف كتاب الله قدم تحرير هذه الفصول ، وذكر فيها من كل شيء مختصراً ، وان على القارىء أن يتأمل ما كتب ، لأنه أشار إلى كثير من الامور بإشارات ورموز لا بد من التأمل فيها للوصول إلى حقيقتها .

من هذا العرض الموجز لموضوع المعارف العقلية ، نلاحظ أن الغزالي أراد أن يحدد معاني بعض الالفاظ حين تطلق ويقصد بها الدلالة على الانسان ، أو حين يراد بها الدلالة إلى الذات الالهية ، وهو في سبيل ذلك يتطرق لعدد من النظريات والآراء في طبيعة خلق الله ، وإبداعه ، وصلة النفس الانسانية بالعقل ، وصلة العقل بالله ، كما انه يعرض لبعض المواضيع الكلامية التي عرض لما شابهها في كتب أخرى كالاحياء ، والاقتصاد في الاعتقاد ، وفيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة، والجام العوام عن علم الكلام .

فهل يقدم الغزالي في هذا الكتاب مالا يقدمه في الكتب السالفة الذكر ؟ أو هل هو يعرض هذه المواضيع باسلوب آخر مخالف حتى نحكم ان « المعارف العقلية » أحد كتبه المضنون بها على غيرها ؟

الواقع أن في كتاب المعارف جزءاً كبيراً مشتركاً بينه وبين كتب أخرى للغزالي ، كما أن فيه بعض المواضيع التي كان يتحرج من ذكرها إلا في كتب خاصة طُعن أحياناً في صحة نسبتها له .

ولعل من المفيد أن نعرض لأهم آراء هذا الكتاب لنرى إلى أي حد تتفق أو تختلف مع آرائه في كتبه الأخرى . يعتمد الغزالي على حديث ضعّفه رجال الحديث وهو « أول ماخلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال له وعزتي وجلالي لم أخلق أكرم عليّ منك.. » نقول: يعتمد الغزالي عليه لينادي بفكرة شرف العقل على النفس ، ثم ليقول بفكرة تزاوج العقل والنفس وإنتاج الهيولى نتيجة لهذا التزاوج ، فيكون العقل « أول المبدعات والنفس أول المنفعلات والهيولى أول المولدات » وتتسلسل الموجودات على هذا الأساس « فالواحد الكلمة ، والثاني العقل ، والثالث النفس ، والرابع الهيولى ، والخامس الطبيعة ، والسادس الجسم ، والسابع الافلاك ، والثامن الأركان الأربعة ، والتاسع المولدات ، والعاشر الانسان» .

أما شرف العقل على النفس فقد قال به عدد من فلاسفه الاسلام واليونان ، كما قال به الصوفية الذين رأوا أن قلب الانسان إما أن يكون مزهراً وذلك حين يتجه ببصره إلى أبيه العقل ، وإما أن يكون منكوساً وذلك حين يتعلق بأمه النفس ، ذلك لأن النفس عند الصوفية تمثل العنصر الشهوي الداعي إلى السوء في الانسان .

وأما نظرية تسلسل الموجودات فإن فلاسفة الاسلام واليونان أيضاً عرفوا مثل

هذه النظرية. وقد كان للفارابي فضل تقديمها بشكل نظرية منتظمة تسمى «نظرية الصدور»، ويشبه تسلسل الموجودات عند الغزالى تسلسلها عند الفارابي .

والسؤال الآن هو ما إذا كان الغزالي صرح بمثل هذه النظرية في كتب أخرى أم لا . . والحقيقة أن الغزالي كثيراً ما أشار في كتبه إلى هذه الفكرة ، إلا أنه لم يصرح بها بمثل هذا الوضوح والتميز إلا في المعارف العقلية ، والمضنون بين الصغير والكبير ، ومعارج القدس إلى مدارج معرفة النفس ، وهذه الكتب أشار فيهـا إلى أنها تحوي إشارات ورموز لا يفهمها جميع الناس وأن من الضروري التدبر والتأمل في معطياتها . ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الكتب كثيراً مـا كانت موضع جدل في صحة نسبتها للغزالي بين القدماء والمحدثين [1] .

● ومن الآراء التي عرضها الغزالي في هذا الكتاب ، نظرية قوى النفس : النباتية ، والغضبية ، والشهوانية ، والعاقلة ، وليس فيها شيء جديد على ما ذكره في كتبه للعامة والخاصة ، فقد عرض هذا الموضوع في الاحياء ، ومعارج القدس ، والمقاصد ، والمقصد الاسنى و ..

● وقد أورد الغزالي في الكتاب أيضاً نظرية الانسان عالم أصغر ، ومشابهة العالم الإنساني للعالم الكبير إذ هو بالنفس« النباتية يشارك النبات ، وبالغضبية يشارك السباع ، وبالشهوانية يشارك البهائم والوحوش ، وهو بالحواس كالطيور وبالوهم كالجان ، وبالخيال كالشياطين ،.. وبقواه السبعة كالأفلاك ، وبالاثني عشرة ثقبة كالبروج ، وبالعروق والعضلات كالدرج ، وبالمرتين والدم والبلغم كالأركان الاربعة ، التي هي النار والهواء والماء والأرض ، وبالجملة يناسب كل جزء من أجزاء ذاته جزءاً من العالم ، فقالبه وشخصه مثال للعالم السفلي ، وأوصاف روحه وقلبه مثال للعالم العلوي ... »

---

(١) انظر مقدمة سيرة الغزالى للمحقق . وبويج الكتاب السالف ، وعبد الرحمن بدوي مؤلفات الغزالي .

ومثل هذه النظرية توجد أيضاً عند الكثيرين من فلاسفة اليونان والإسلام كما رددها الكثيرون من رجال الصوفية ، وقد أشار إليها الغزالي في كثير من كتبه ، وصرح بها في معارج القدس والمعارف العقلية ..

● ومما يعرض له في المعارف صلة النفس الناطقة بالبدن ، وأنها قد تكون صلة تدبير وتصريف لأموره ، كما قد تكون صلة تعلق به وهوى له ، هي حينذاك تنحدر عن مرتبتها وتتخلى عن واجبها وأمانتها ، ومثل هذه النظرية يلمح عليها الصوفية ، وهي توجد في كثير من كتبه للعامة والخاصة .

● كما أنه أورد فيه نظريته في العقل ، وأنه يكون أولاً « نفساً ساذجة ، ثم عقلاً غريزياً ، ثم عقلاً بالقوة والملكة، ثم عقلاً بالاكتساب ، ثم عقلاً بالفعل. ويطابق هذا التسلسل لما ذكره في الأحياء في كتاب العقل ، وقد كان وروده هناك بتفصيل أكبر .

● ثم إن الغزالي يذكر فيه عدة آراء في علم الكلام ، فهو يحمل أولاً على الجدل في موضوع كلام الله وصفاته « هذا الجدل الذي يسميه المعتزلة وأتباعها كلاماً فذلك خرافات الحديث وفضلات المنطق ورأس البدعة وأصل الزندقة » ولكنه يقترب من آراء المعتزلة إلى حد كبير حين يعمد إلى تنزيه الله تنزيهاً مطلقاً ويمنع التعدد في صفاته ولكن ذلك يرد في هذا الكتاب بطريقة صوفية أكبر منها جدلية كلامية ، فالله هو « الإله الحق المحق الذي لا كثرة في صفاته ، ولا حد لذاته ، ولا آلة لكلماته » والواجب على العاقل كما يقول : « أن يتأمل ويعلم أن صفات الباري تعالى لا تتعدد ولا ينفصل بعضها عن بعض إلا في مراتب العبارات، ومدارج الاشارات ، كما إذا أضيف علمه إلى سماع دعوة المضطرين يقال سميع ،وإذا أضيف علمه إلى رؤية كل صغير و كبير يقال بصير ، وإذا نيل منه الرزق فهو رازق ،

وإذا فاض من مكنونات علمه على قلب أحد من الناس بأسرار إلهيته ودقائق جبروت ربوبيته يقال متكلم ... »

والحقيقة أن أسلوب عرضه لموضوع الذات والصفات هنا يختلف عن طريقة عرضه في قواعد العقائد من الاحياء ، والاقتصاد في الاعتقاد ، وغيرهما . ومايقوله الغزالي في هذا الموضوع ان كلام الله « صفة ذاته ، ولطيفة علمه ، فما أفاض من كلام علينا يكون حديثاً من قديم برهانه وعظيم شانه » .

أما كيف يحل مشكلة الحدوث والقدم في كلام الله تعالى فإنه يقول بأن الله متكلم « بذاته أزلاً وأبداً » وأنه إذا أظهر كلامه على بعض عباده « يكون قائلاً بنية الإظهار وبسبب الاعتبار » وهو يأخذ هنا بنظرية الاشعرية في الكلام النفسي، ولكنه يعرضه بأسلوب مختلف. فاذا أراد الله « أن يتكلم يوحي معاني كلامه إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام ويلقي في قلوبهم نور الوحي بواسطة روح القدس ، حتى يعبر الشارع عن كلام الله سبحانه وتعالى بلسانه ويتكلم ببيانه . كما قال سبحانه: نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين. والحروف تقع في كلام الله تعالى عند عبارة النبي عليه السلام فتكون الحروف آلة محدثة . والكلام صفة قديمة وإذا زالت المحدثة لاتزول صفة القديم بزوالها » .

من أجل ذلك كان قول الله تعالى عند الغزالي ليس إلا « إفاضة المعاني على العقول بحسب قوتها وعلى قدر طاقتها » وهنا تختلف مراتب الناس، فيكون النبي أو الولي « فواحد يسمع بصفاء نفسه وقوة عقله صريح القول فيكون صاحب وحي ورسالة ، وآخر يسمع بقوة فكره وغلبة وهمه فيكون صاحب إلهام وحديث . وعلى هذه المراتب ، فبعضهم لايسمع من كلام الله تعالى إلا الحروف ، وبعضهم يسمع كتاباً منزلاً مجملاً مثل التوراة والانجيل والفرقان ، ويعلم أنها كلام الله سبحانه وقوله » .

إن اسلوب الغزالي في عرض هذا الموضوع في المعارف العقلية يختلف — كما قلنا — كثيراً عن أسلوب عرضه في كتبه للعامة كالاقتصاد وقواعد العقائد، ويتفق مع اسلوب عرضه في الرساله اللدنية ومشكاة الأنوار وهي من الكتب التي قيل إنه كتبها للخاصة، وكانت ميدان جدل كبير بين القدماء والمحدثين حتى أن ابن تيمية أفاض في نقد مشكاة الأنوار خاصة في رسالة السبعينية.

● ومما يعرض له في الكتاب، النظرية التي تقول باحتجاب النفس عن الحقائق بسببِ أغلال البدن وسجنه ، لأنها لا تصبح عقلاً إلا إذ تخلص من هـذا الأسر فهذه «النفوس الناطقة ، كانت صافية لطيفة مشعة ، لا يمنعها شيء من الحجب والموانع، لكنها لما اتصلت بهذه الاشخاص الترابية ، وتسربلت سربال الجسدانية ، وانحصرت في حيز البشرية، احتجبت بحجب الحواس ، واستترت بأستار غلاظ كثاف ...»

إن هذه النظرية معروفة عند فلاسفة الاشراق ، وعند الصوفية ، وقد رمز الغزالي اليها رمزاً وأشار اليها إشارة في الاحياء وغيره ، وصرح بها في المعارف والرسالة اللدنية ومشكاة الانوار .

ولا يتسع المجال هنا لإبراز جميع الأفكار التي عرضها الغزالي في المعارف فالنص موجود بين أيدي القراء . وإنما كان مقصدنا هنا تلمس الاسباب التي جعلت البعض يقول بأن هذا الكتاب من كتبه للخاصة وأن نحكم فيما إذا كان ابن طفيل محقاً في أنه ليس فيه مايوجب وصفه بهذه الصفة . ولقد رأينا عند كل فقرة عرضناها مقدار مايؤكد هذه الفكرة أو ينفيها والحقيقة اننا نميل إلى أن هـذا الكتاب من كتبه للخاصه ، وذلك لأسلوبه في العرض ، ولصراحته في تناول بعض المواضيع ، وليس من الضروري أن تكون آراؤه في هذا الكتاب مناقضة لآرائه في الكتب الأخرى وخاصة تلك التي ألفها للعامة ، لأن الحقيقة واحدة ولكن الناس مختلفون ، فما يمكن أن يفهمه أحدهم قد لا يفهمه الآخر . والناس عند الغزالي على مراتب ثلاث :

مراتب الناس عند الغزالي

أ — عوام ، وهم أهل السلامة البله وهم أهل الجنة

ب ـ وخواص ، وهم أهل الذكاء والبصيرة

حـ — ويتولد منهما طائفة، هم أهل الجدل والشغب، فيتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة[1] ، ولأجل ذلك اختلف أسلوب الغزالي في مخاطبة الناس وذلك بحسب مرتبتهم وطبقتهم الفكرية ، ولعل مما يؤكد ما نميل اليه ما يذكره الغزالي في آخر المعارف من أن « هذا المقدار الذى كتبنا وذكرنا في هـذه الأوراق ، نخبة أسرار غير مكتوبة ، وإشارات مكنونة ، ورموز مستورة . عبرنا عن كل سورة بآية ، واغترفنا من كل بحر قطرة ، والعاقل الحر تكفيه الاشارة ، فكم من عاقل كيس ينال الخير من العلم القليل ما لا ينال الجاهل البليد في جميع العلوم عشر معشارها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » ثم يقول « فعليك أيها الطالب الحريص أن تتأمل هذا الكتاب تأمـل طالب متفكر ، لا تأمُّل حسود متعنت متكبر ، حتى ترى العجائب ، وتنجو من الشوائب ، ولا يحل أن يوضع الورد بين الحمير ، ويطرح الدر في فم الخنازير . . . »

المعارف العقلية عند الباحثين :

أشار المرتضى الزبيدي شارح الاحياء إلى كتاب المعارف العقلية ، تحت عنوان « المعارف العقلية ولباب الحكمة الالهيـة » وقال إنه رجع اليه في جملة ما رجع اليه من الكتب المتعلقة بالعقيدة .

وذكره جميـل العظم في عقود الجواهر مرتين : الأولى باسم « رسالة في

---

(١) القسطاس المستقيم ص ٨٦ وما بعدها .

الفرق بين النطق والكلام »[1] والأخرى باسم « المعارف العقلية والحكم الالهية»[2]

وأورده بويج مع الكتب التي لا يشك في نسبتها للغزالي [3] ، وأشار إلى الاسماء المختلفة التي أعطيت لهذه الرسالة .

وذكر بروكلمان هذا الكتاب حين ترجم للغزالي تحت عنوان « المعارف العقلية ولباب الحكمة الالهية [4] »

ووضعة الدكتور بدوي في كتابه مؤلفات الغزالي مع الكتب الصحيحة النسبة للغزالي [5] وأشار إلى عدد مخطوطاته وأماكن وجودها في مكتبات العالم .

وقد نشر المستشرق الاسباني داريو كابانيلاس الباب الثالث من هذا الكتاب في مجلة الاندلس مدريد ، ١٩٥٦ [6] .

عناوين الكتاب :

وقد جاء الكتاب بعناوين مختلفة وهي :

المعارف العقلية ولباب الحكمة الالهية

المعارف العقلية والاسرار الالهية

كتاب فيه المعارف العقلية والحكم الالهية

---

(١) عقود الجوهر ص ٨

(٢) المرجع السابق ص ١١

(٣) بويج ص ٣٧

(٤) بروكلمان الملحق ١ : ٧٤١

(٥) مؤلفات الغزالي ٩٣ ـ ٩٧

(٦) « « ٩٦

المعارف العقلية [1]

رسالة في الفرق بين الكلام والنطق والقول [2]

النسخ المخطوطة التي اعتمدنا عليها في نشر هذا الكتاب :

١ ـ مخطوطة مكتبة ليتون Lytton بجامعة عليكرة ، وهي بعنوان المعارف العقلية ، وقد كتبت بخط تعليق حديث ، عن نسخة كتبت في سنة ٧٢١ هـ ، وعدد الاوراق ٢٥ ورقة ، والمقاس ١٦٠ × ٢٤٠ مليمتر . ورقم الفيلم ٣٠٢٠ .

٢ ـ نسخة المكتبة التيمورية بدار الكتب في القاهرة ، وهي بعنوان المعارف العقلية ، قد كتبت بخط مغربي حديث . وتقع فيها من الصفحة ١٢٢ الى الصفحة ١٣٧ ، من القطع الكبير ، وعليها تعليقات وشروح حديثة ، وقد كتبت بتاريخ ١٢٥٧ هـ ، عن نسخة قديمة لم يشر إلى تاريخها . وهي إحدى ثلاثة مخطوطات في نفس المجموعة والمخطوطتان الأخريتان هما :

ـ الذخيرة في علم البصيرة لأحمد بن محمد الغزالي شقيق الإمام الغزالي ، وهو متوفي سنة ٥٢٠ هـ .

ـ المقصد الاسنى شرح أسماء الله الحسنى للغزالي .

٣ ـ نسخة بلدية الاسكندرية وهي من مجموعة تشتمل على ١٩ رسالة ، والنسخة بعنوان « رسالة في الفرق بين الكلام والنطق والقول » ، وهي في فهرس الفنون المتنوعة وبرقم ٣٠٢٤ ج . وبخط قديم دون تاريخ .

وقد أعطينا نسخة عليكرة رمز آ

ونسخة التيمورية رمز ب

ونسخة الاسكندرية رمز ج

(١) مؤلفات الغزالي ٩٤

(٢) مخطوط الاسكندرية ، وقد كان احدى النسخ التي اعتمدنا عليها في نشر الكتاب .

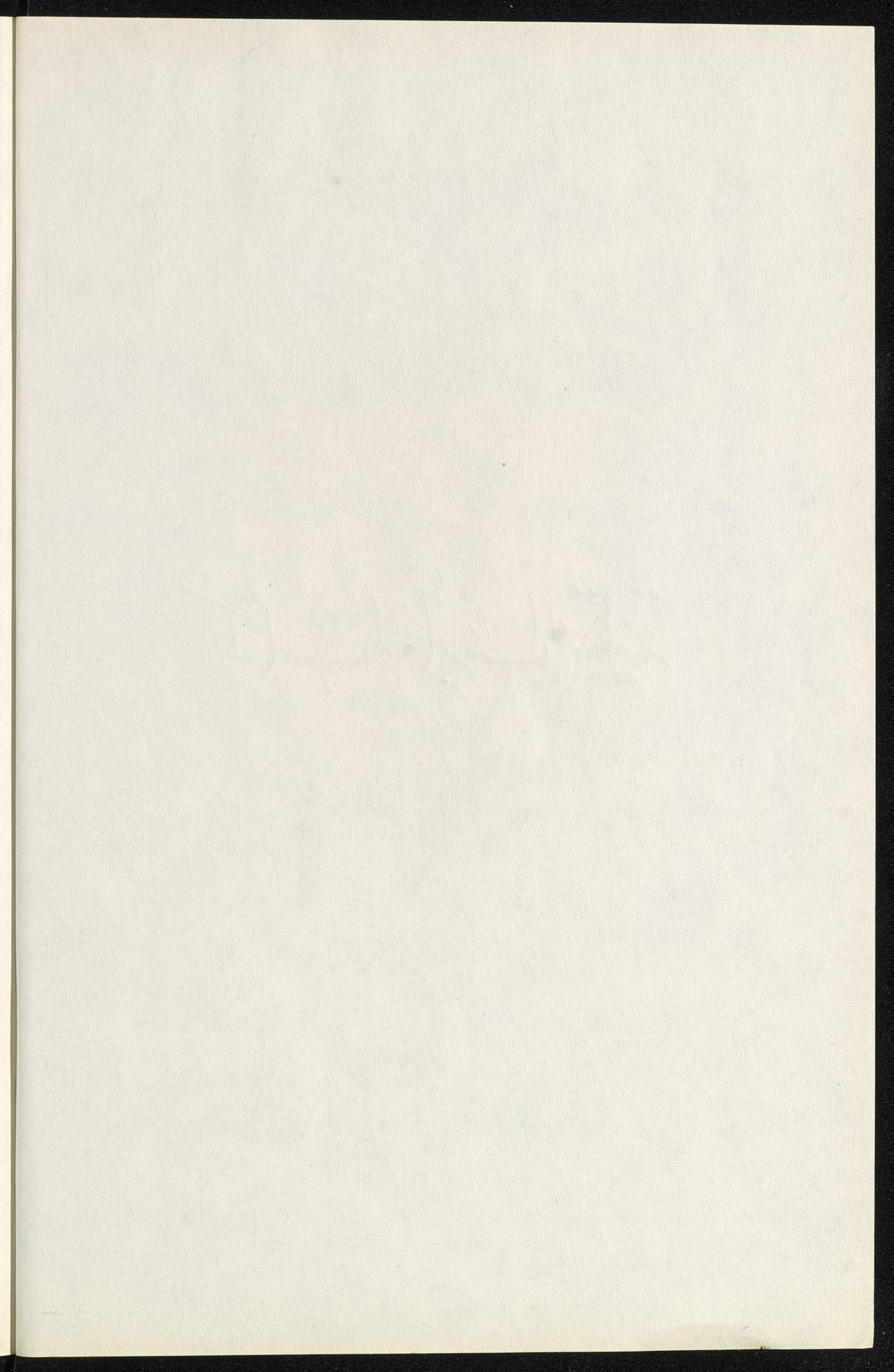
اما عن طريقتنا في تقويم نص المخطوط ، فاننا اعتمدنا على إثبات مانعتقد أنه النص الصحيح من مختلف النسخ المخطوطة ، وأشرنا في الهوامش إلى اختلافات النسخ ، ولم نحاول التعليق على الآراء والأفكار التي وردت في الكتاب ، وإنما اقتصرنا على تخريج الآثار والاحاديث ، وشرح بعض الكلمات ، واضعين النص بين أيدي الباحثين يفيدون منه ويحللونه ويستنبطون منه ما يهتدون إليه .

وإننا لنرجو أن نكون قد وفقنا في تقديم النص الصحيح لهذا الكتاب مساهمين في نشر تراثنا الاسلامي العتيد،والله نسأل أن يجنبنا الخطأ ويهدينا الى سواء السبيل .

عبد الكريم العثمان

كتاب المعارف العقلية

بدوي



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ[1] الإمام الأوحد حجة الحق أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي[2] رحمة الله عليه :

الحمد لله الذي عقل العقل عن تمشيته[3] الاشارة إلى بداية إنيته ، وأخرس الألسن[4] عن تطوية[5] العبارة عن نهاية هويته ، حتى ظل العقل في أول الإبداع أعجز من الحسن في آخر الاختراع ، ربنا ورب آبائنا العلويات وأمهاتنا السفليات . إياه نطلب ونروم ، وله

---

(١) العارف بالله تعالى في ج (٢) ناقصة من ج

(٣) من مشى ، يقال مشت مشاء ، كثرت أولادها . ويقال مشت إبل فلان مشاء إذا كثرت ، والمشاء النماء . انظر لسان العرب ٢٠ : ١٥٠ ، ولعله يريد أنه تعالى حجب الناس عن الوصول إلى بداية ذاته .

(٤) ألسن في ب .

(٥) تطوية في أ وترطية في ج . والطي نقيض النشـــر ، طويته طيّاً وطِيّةً وطِيةً ، واطو لنا الأرض أي قربهـــا لنا وسهل السير فيها حتى لاتطول علينا . انظر اللسان ١٩ : ٢٤٣ ، ولعله يريد أن الله لم يسهل لنا سبيل الوصول إلى نهاية هويته لحكمة يريدها .

نصلي ونصوم ، وبه نقعد ونقوم ، وهو الواحد المبدع الموجد القيوم . وصلواته على سيد المرسلين ، ورحمة رب العالمين ،والمشرف بالنبوة قبل امتزاج الماء والطين ، والسلام على آله الطيبين الطاهرين أبد الآبدين .

أما بعد : فان الله تعالى لما أبدع العالم الروحاني ، وخلق العالم الجسماني ، اختار الإنسان من سائر[١] المخلوقات ، وجمع فيه لطائف[٢] المصنوعات من المعقولات والمحسوسات ، ليكون أنموذجاً من العالم الكبير ، وليعبر عنه بالعالم الصغير . ولهذه الكلمة تفصيل[٣] يطول شرحه ، ولا يخفى بيانه على سُرج[٤] القلوب ، ولا يحل وضعه عند من ملكته العيوب[٥] . وهذا الانسان إنما تميز من بين الخلائق ، وأُوتي[٦] بيان الحقائق ، بشرف[٧] النطق ، ومن لم يعرف حقيقة النطق فليس له من الانسانية إلا الاسم ، ولا من الصراط المستقيم إلا الرسم .

وإذا كانت الانسانية هي النطق فحسب،وأكثر الناس تحيروا[٨]

---

(١) ساير في ج (٢) لطائف في أ (٣) شرح بدلاً من تفصيل في ج

(٤) المسرجين في ب ، والمنشرح من القلوب في ج . وسرج جمع سراج: أي المصباح الزاهر . (٥) الغيوب في أ (٦) اختص في ب

(٧) شرف في أ (٨) يتحيرون في ب ، ويتحرون في ج .

في حال النطق وكيفيته[١]، بحيث[٢] أنهم لا يفرقون[٣] بين الكلام والنطق والقول ، فظنوا[٤] أن هذه الكلمات أسماء لمعنى واحد . ولو كان الأمر كما ظنوا لجاز أن يقال للباري[٥] ناطق ، وللجرم الفلكي قائل[٦] ، وهذا أمر غير مذكور ، فأردنا أن نبين حقيقة هذه الأسامي ، ونفرق[٧] بين هذه المعاني ، ليكون معتصماً لذوي الألباب .

وعولتُ فيه على تأييد مسبب الأسباب ، فانه الجواد الوهاب . وبوبت الكتاب خمسة أبواب ، ليكون سهلاً[٨] على من سلك هذا الطريق ، واستعنت بالله ، فانه ولي الهداية والتوفيق .

الباب الأول : في النطق .

الباب الثاني : في الكلام .

الباب الثالث : في القول .

الباب الرابع : في الكتابة .

الباب الخامس: في الغرض المطلوب.

---

(١) ناقصة من ج (٢) حيث في ج (٣) يعرفون في ب
(٤) وظنوا في ب (٥) تعالى في ج (٦) قايل في أ و ج
(٧) الفرق في ج (٨) أسهل في ب .

الباب الأول

في النطق وما يتعلق به

وفيه فصول خمسة :

الفصل الأول[1]

في النطق

وفيه فصول[2] :

اعلم[3] أن المطالب الأصلية أربعة :

الأول : مطلب هل ، وهو السؤال عن وجود الشيء .

والثاني : مطلب ما ، وهو السؤال عن ماهية الشيء .

والثالث : مطلب لِمَ ، وهو طلب[4] العلة .

---

(١) ناقصة من ب (٢) العبارة « في النطق وفيه فصول» ناقصة من ب

(٣) أسعدك الله في ب وأسعدنا الله وإياك في ج (٤) مطلب في ب

والرابع : مطلب أي ، وهو السؤال عن مطلب الشيء الذي يفصله عن الجنس المشارك له .

أما مطلب هل ، فعلى وجهين : أحدهما عن أصل الوجود ، كقوله هل الله موجود ؟ والثاني عن حال الشيء[1] ، كقوله هل الله مريد ؟

وأما مطلب ما ، فأيضاً على وجهين : أحدهما سؤال المتكلم عن تفسير لفظة ، كما يقال ما العقار ؟ فيقال الخمر . والثاني طلب حقيقة الشيء في نفسه ، كما يقال ما العقار ؟ فيقال الشراب المسكر المعتصر من العنب .

ومطلب ما بالمعنى الأول متقدم على مطلب هل . فان لم يُفهم الشيء لا يُسأل عن وجوده . وبالمعنى الثاني متأخر عن مطلب هل . لأن ما لم[2] يعلم وجوده لا يطلب ماهيته . فبعض الأشياء تستدعي[3] أولاً إثبات الهلِيّة[4] ، ثم الماهية[5] ، ثم اللِمية[6] .

وغرضنا خارج عن مطلب الهليّة ، فانه لا يقال للنطق هل هو ؟

---

(١) ناقصة من أ　　　(٢) لا في ج

(٣) يستدعي في أ　　　(٤) من هل

(٥) المائية في ب والانية في ج　　　(٦) من لمَ .

لأن آثاره ظاهرة ، وأنواره زاهرة[١] ، ودلائله باهرة[٢] . فانه لا يحتاج إلى مقوم[٣] من خارج ، لأنه يقوم الإنسانية. فان الإنسان إذا حد يقال حيوان ناطق ميت[٤] . فالمعنى[٥] الذاتي المقوم للانسانية هو[٦] النطق ، فبهذا السبب استغنينا[٧] عن جواب هل هو .

★ ★ ★

---

(١) فائرة في ج
(٢) ظاهرة في ج
(٣) مقام في ج
(٤) مايت في أ
(٥) والمعنى في ج
(٦) وهو في أ
(٧) استغني في ب واستغنى في ج

الفصل الثاني

أما ماهية[١] النطق فيحتاج[٢] إلى أدنى شرح ، وشرحه يستدعي أدنى تأمل لاشتباهه بالكلام والقول . وقد عرفنا بأن[٣] النطق معنى آخر زائد[٤] على معنى الكلام والقول ، وذلك أن الجنين يوصف بالنطق لأنه ناطق ، ولو لم يكن ناطقاً[٥] لما[٦] عد[٧] من الناس . ولا يقال قائل[٨] لأن قوله بالفعل ثابت[٩] ، فبهذه الضرورة احتجنا أن نذكر طرفاً من ماهية النطق فنقول :

إن[١٠] الله سبحانه[١١] ، لما أراد إظهار جبروته بالإرادة التي تليق بذاته[١٢] ؛ أبدع جوهراً روحانياً بسيطاً مدركاً كاملاً

---

(١) مائية في ب
(٢) محتاج في أ
(٣) في في ب
(٤) زائداً في ب وزايداً في ج
(٥) ناطق في أ
(٦) لم في أ
(٧) يعد في أ
(٨) قايل في أ و ج
(٩) ناقصة من ب
(١٠) لأن في ج
(١١) تعالى في ج
(١٢) سبحانه في ج

مكملاً ، وصفاه وجلاه كالمرآة ، ثم[1] قابله بنور جلاله وجماله، فتصورت[2] إلهية الباري جل جلاله[3] في ماهية[4] جوهريته ، وعَقل َ[5] ربوبيةَ مبدِعه ، فعرف[6] عبوديةَ ذاته ، فصار ذلك الجوهر المبدع[7] الأول[8] عقلاً بصفاء ذاته ، عاقلاً بادراك ربوبية بارئه[9] ، معقولاً باحاطة العبودية حوله . فعرف ربه ، وأطاع أمره[10] ، واستولى على مطويات[11] القدر ، ومخفيات القضاء ، بكلمة الباري تعالى ، وأقبل عليه بالاستفادة ، وأدبر عنه بالإفادة ، كما روي عن النبي[12] ﷺ أنه قال :

«أول ما خلق الله العقل ، فقال[13] له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر»[14]

---

(١) ناقصة في ج
(٢) بقصور في ب
(٣) ثناؤه في ج
(٤) ذات في ج
(٥) معقل في ج
(٦) وعرف في ج
(٧) المبدء في أ
(٨) ناقصة من ب و ج
(٩) باريه في ب
(١٠) أمر في ب
(١١) مضمونات في ب و ج
(١٢) رسول الله في ب
(١٣) قال في ب و ج
(١٤) قال العراقي : حديث أول ما خلق الله العقل . . . من حديث أبي أمامة وأبو نعيم من حديث عائشة باسنادين ضعيفين . الاحياء ١: ٧٤

أقبل[1] على الكلمة بالاستفادة فتوحد ، ثم أدبر فأظهر النفس بالإفادة ؛ فتزوج ، فأنتج الهيولى من مباشرة[2] العقل والنفس ، وتمت الكثرة بالثلاث ؛ كما قيل[3] أقل الجمع ثلاث[4] .

فالعقل[5] أول[6] المبدعات[7] ، والنفس أولى المنفعلات ، والهيولى أولى المولدات . قال الله تعالى : « شَهِدَ اللهُ أنهُ لا إلهَ إلا هُوَ والملائكة وأولوا العلم »[8].

فالحاسب[9] عادٌّ ، والعدد شيء زائد ، وأصل العدد واحد ، حتى أحصى من الكلمة التي هي الوحدة إلى[10] المرتبة الأخيرة التي هي العاشرة ، وهي الانسانية ، ولم يتمكن العاد[11] من إنشاء عدد آخر ؛ فرجع من نهاية عدد[12] العشرة إلى بداية الوحدة ،

---

(1) فأقبل في ج
(2) مباشر في ج
(3) روي في ب و ج
(4) ثلاثة في ج
(5) والعقل في ج
(6) الأول في أ وأول في ج
(7) المبدءات في ج
(8) ١٨ ، آل عمران
(9) فالحساب في ب و ج
(10) ناقصة من ب ومن ج
(11) العدد في ج
(12) ناقصة من ب ومن ج

فزاد الواحد على العشرة ؛ فحصل من المجموع والزيادة إنسان ناطق عالم عامل[1].

فالواحد الكلمة ، والثاني العقل ، والثالث النفس ، والرابع الهيولى ، والخامس الطبيعة ، والسادس الجسم ، والسابع الأفلاك ، والثامن الأركان الأربعة ، والتاسع المولدات ، والعاشر الانسان . فرجع وزاد الواحد على العشرة ، فكانت الزيادة نبوة[2] ورسالة . ففي[3] النهاية عشرة كواحد في البداية ، والنهاية رجوع إلى البداية[4].

فاذن قد تبين بهذه المقدمات أن نهاية العدد العشرة ، والعشرة راجعة الى الواحد الأول وهو العقل الكلي ، والعقل الكلي أثر كلمة من كلام الله الباري[5] تعالى ، والنطق أثر من العقل الكلي . فاذن النطق ليس هو صورة العبارة ، ولا نفس الاشارة ، ولا شكل الحروف ، ولا تقطيع الأصوات ، بل النطق هو تمكن[6] النفس الانسانية من العبارة عن الصورة المجردة المتقررة في

---

(١) عاقل في ب و ج
(٢) نبوءة في ج
(٣) وفي في ج
(٤) ناقصة من ب ، وللبداية في ج
(٥) ناقصة من ج
(٦) يمكن في أ

علمه ، المفردة في عقله ، المتبرئة[1] عن الأشكال ، المعراة عن الأجسام والمثال .

فهما[2] تصور حقائق الأشياء بأعيانها وذواتها المجردة في مرآة القلب ، وتقدر[3] النفس على العبارة عنها ، ويتمكن الذهن من التفكر[4] فيها ، ويحيط العقل بظاهر وباطنها سميت[5] تلك النفس ناطقة ، ويقال لذلك الرجل ناطق ولو لم يتكلم بالبيان[6] ، ولم يقل باللسان ، وحقيقة ذلك سر[7] من أسرار القرآن حيث قال تعالى: « هذا كتابنا[8] يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بالحَق »[9].

وليس لكتاب[10] آلة العبارة ، ولا عُدَّة الاشارة ؛ لكن[11] لما تضمن جميع الأشياء ، وأحاط بكل[12] المكنونات[13]، واستولى

---

(١) المبرأة في ج

(٢) جمعها في ج

(٣) يقدر في ب ، وتقدر في أ و ج

(٤) الفكر في أ و ج

(٥) سمي في أ و ب

(٦) بانسان في أ

(٧) يتبين في ب و ج

(٨) كتاب في أ و ب

(٩) ٢٩ ، الجاثية

(١٠) للكتاب في النسختين أ و ب

(١١) ولكن في ب و ج

(١٢) على في ب و ج

(١٣) المكتوبات في أ .

على لطائف الموجودات وكثائفها[1] كما قال تعالى : « ما فرّطْنا في الكِتابِ من شيء »[2] ، وقال تعالى : « ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبين »[3] . فبهذا المعنى سمى الله كتابه « ناطق »[4] ليعلم العاقل[5] أن الناطق من الناس من تكون[6] نفسه متأسية[7] لكتاب الله تعالى ، ومتصورة لمضمونات كلمات الله تعالى ، ومن لم يعرف حقيقة ما قلناه فهو أبكم وإن كان قائلاً ، ومن لم يدركه فهو أصم وإن كان مستمعاً ، كما قال تعالى : « صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فَهُم لا يَعقِلون »[8].

فمن انسلخ عن جلده الهوى[9] والطبيعة انسلاخ الحية ، وتدرع بدرع الشريعة ، ينشرح قلبه بنور الالهية[10] ويحترق إيمانه[11] بنور الوحدانية ، ويكل نظره الحسي ، ويمتد نظره العقلي ، ولا

---

(1) كثائفهـا في ج

(2) ٣٨ ، الأنعام

(3) ٥٩ ، الأنعام

(4) ناطقاً في ج

(5) الغافل في ج

(6) يكون في أ

(7) في جميع النسخ رسمت مناسبة

(8) ١٧١ ، البقرة

(9) القوي في أ

(10) العبارة في ج ينشرح صدره ويتنور قلبه

(11) أمله في أ و ج

يخفى عليه شيء من أسرار[1] الملكوت ، وروضة الجبروت ، فهو قاعد[2] بشخصه بين أبناء جنسه ، وقلبه كالطير ، فهو[3] في الهواء[4] يصعد إلى مرقاة الكرم ، ويطير[5] في جو الحرم ، ويغتذي[6] بلطائف أسرار القلم[7] ، كما قال تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيِّبُ والعملُ الصَّالحُ يرْفعه »[8] . فيسمع قلبه النغمات الفلكية، ويلتذ[9] بالترنمات[10] الملكية ، ويفهم معاني[11] أصوات الطيور ، ويطلع على أسرار الفرقان والانجيل والزبور ، كما قال تعالى[12] إخباراً عن نبيه سليمان عليه السلام[13] حيث قال : « يا أيها النـاس عُلِّمنا مَنطِقَ الطير وأُوتينا من كُلِّ شيء[14] » .

فاذن النطق أشرف الأحوال ، وأجل الأوصاف ، وهو أصل

---

(١) أنوار في ج

(٢) قاصر في ب وناطق في ج

(٣) ناقصة من ج

(٤) الهوى فى ج

(٥) ويطأ ما في ج

(٦) ويتغذى في ج

(٧) العلوم في أ والقدم في ج

(٨) ١٠ ، فاطر

(٩) يتزود في ب ويتلذذ في ج

(١٠) بالترنيمات في ج

(١١) معنى في ج

(١٢) جل من قائل

(١٣) على نبينا وعليه الصلاة والسلام في ج

(١٤) ١٦ ، النمل

الكلام والقول ، وماهيته[1] تصور النفس صور المعلومات ، وقدرة[2] النفس على الاسماع[3] لغيرها مما يسنح في العقل بأي لغة كانت ، وأي عبارة اتفقت . (قال نبينا عليه السلام: «لا راحة في العيش إلا لعالم ناطق أو مستمع واع »)[4].

فاذن قد تبين بما ذكرناه ماهية[5] النطق[6] وشرفه ، وتبين أن الناطق من تكون[7] نفسه مثالاً لكتاب الله تعالى ، وقلبه نسخة من كلمات الله سبحانه[8] ، ليقدر[9] أن يسمع ربه[10] تعالى ، ويسمع غيره ؛ وهذا هو نهاية شرف الانسانية ، (وحالة الملائكة ، فانهم[11] صلوات الله عليهم) موصوفون بالنطق، والانسان إذا نطق[12] ملك بالقوة ، فاذا صارت ذاته نطقاً ، وفارق علائق الجسم يصير ملكاً بالفعل ، ويناديه[13] ربه : « سَلامٌ عليكم طِبْتم فادْخلوها خالدين[14] » .

---

(١) في ، في أ (٢) قوة في ب

(٣) في الأصل وفي جميع النسخ الاسماع (٤) قال..واع العبارة كلها ساقطة من ب و ج

(٥) ماهيته في أ (٦) ساقطة من أ

(٧) يكون في أ (٨) ساقطة من أ و ب

(٩) فيقدر في ب و ج (١٠) من ربه في ج

(١١) فان الملائكة في ب و ج وتضيف ج صلوات الله على نبينا وعليهم

(١٢) ساقطة من ب (١٣) يتلا به في أ (١٤) ٢٧٣ الزمر

الفصل الثالث

اعلم أن من يتأمل ماهية[١] النطق ، ويطلع على حقيقته ، ويترقى[٢] درجته ودقيقته ، يستغني عن سؤال اللمية ، ويعلم يقيناً أن الخير في الوجود ، والشر في العدم . والانسان بالنطق يلتذ في وجوده من بدايته ، ويرتقي إلى غايته ؛ فان بدايته القوة النامية والمصورة التي هي قوة من قوى النفس النباتية ، وغايته القوة الملكية[٣] التي هي من جنود الروح القدس الذي ذكره الله في كتابه ، فقال : « يومَ يقومُ الرُّوحُ والملائكةُ صفّاً »[٤] .

فاذن الانسان لا يبلغ إلى غايته إلا بالنطق ، ولو تمكن البلوغ إلى أقصى السماوات[٥] العلوية بشيء سوى النطق ، لكان

---

(١) مائية في ب
(٢) يسترقي في ب
(٣) الملائكية في ب
(٤) ٣٨ ، النبأ
(٥) السهاوات في أ

خطاب الباري وتكليف الشرع وإقرار العبودية وتصديق النبوة وإثبات الربوبية متعلقاً بذلك الشيء ، فلما[1] توجبت[2] هذه المعاني على النطق ، علمنا أن الانسان ما يتميز من الحيوانات إلا بالنطق ، ولا يتشبه بالملائكة إلا بالنطق . وهذا النطق[3] من مواهب الله تعالى على العباد ، وذلك أن الانسان بكل قوة من قوى طبعه ، وبكل صفة من صفات ذاته ، يشابه صنفاً من أصناف الموجودات .

فبالنفس النباتية يشارك النبات ، وبالغضبية يشارك السباع وبالشهوانية[4] يشارك البهائم والوحوش ، وهو بالحواس كالطيور ، وبالوهم كالجان ، وبالخيال كالشياطين ، فانهم يغوصون في البحار ، ويطوفون في البراري ، ومنهم كل بناء وغواص ، وآخرون[5] مقرنون[6] في الأصفاد . وهو بعظامه[7] كالمعادن ، وبشعره كالنبات ، وبثقبه ومجاريه كالعيون والأنهار ، وبقواه السبعة

---

(١) ومهما في ب
(٢) توجهت في أ
(٣) هو من في ب و ج
(٤) بالشهوية في ب
(٥) وآخرين في ب
(٦) مقرنين في ب
(٧) بغائطه في ب

كالأفلاك ، وبالإثني عشر ثقبة كالبروج ، وبالعروق والعضلات[1] كالدرج ، وبالمُرتين والدم والبلغم[2] كالأركان الأربعة ، التي هي النار والهواء والماء والأرض .

وبالجملة[3] يناسب كل جزء من أجزاء ذاته جزءاً من العالم ، فقالبه وشخصه مثال للعالم السفلي ، وأوصاف روحه وقلبه مثال للعالم العلوي ، والنفس الناطقة فيه كالأمير يدبر ويسوس . ويرعى ويأمر وينهى[4] ويمحو ما يشاء ويثبت ، وهي خليفة[5] الله في الأرض البدن ، وحكمة الله على القالب الكثيف ، وحجة الله على العبد الضعيف ، وصراط الله الممدود[6] بين البهمية التي هي الشر المحض ، وبين الملكية[7] التي هي الخير الصرف . وهذا الأمير لا يعلو شأنه ولا يعظم قدره إلا بمتابعة الشرع[8] ، وإقامة العبودية ، وطاعة النبوة ، والاقرار

---

(١) الأعصاب في ب

(٢) والسوداء في ب و ج

(٣) وفي الجملة يمحو في ب

(٤) ويقبل ما يشاء في ب

(٥) خلقة في أ

(٦) المدود في أ

(٧) الملائكية في ب

(٨) الشريعة في ب

بالربوبية ، كما قال تعالى : « وَمَنْ يُطعِ اللهَ ورَسولهُ فقَد فازَ فوْزاً عَظيماً »[1].

وكرامة الله تعالى للنفس الناطقة فحسب ، كما قال الله تعالى: « ولقَدْ كرَّمنا بَني آدمَ »[2] ، وهذه الكرامة للمؤمنين خاصةً لأن علامة النطق الإِيمان ، ومن لم يبلغ رتبة[3] الإِيمان لم يختص بشرف النطق ، ومن لم يختص بشرف النطق لم ينل كرامة الله تعالى ، لأنه قال[4] : « إنَّ في ذلكَ لذكْرى لمن كانَ لهُ قلبٌ أو ألْقى السمعَ وَهوَ شَهيد »[5].

فانظر أَيها العبد الضعيف إِلى شرف هذا الجوهر اللطيف ، الذي أنزله الله تعالى[6] من ملكوت سماواته ، إِلى هذا العالم الصغير الحقير المظلم الكدر ، ليكون ساقياً لهذا الشراب ، ومزيلاً[7] لهذا التراب ، ومعمراً[8] لهذا الخراب .

---

(١) ١٣ ، النساء
(٢) ٧٠ ، الاسراء
(٣) ربه في أ
(٤) تعالى فقط في ب و ج
(٥) ٣٧ ، ق
(٦) اليه في ب
(٧) منزلاً في أ
(٨) معياراً في ب

واعلم أن الله جل ثناؤه ، إنما بنى هذا الهيكل لأجل النفس الناطقة ، وبنى هذه المدينة لها ، حتى نزل[1] النطق كالأمير في مدينة القلب ، واتخذ[2] من وسط الدماغ سريراً ، ومن مؤخرة خزانته حافظاً[3] ، ومن مقدمه بريداً وموصلاً ، ومن حواسه جواسيس وطيوراً[4] ، ومن قلبه مقسماً[5] ، ومن يديه[6] جناحاً ، ومن رجليه قوائم[7] وعماداً ، ومن خطراته وحركاته رجالاً وركباناً . فالنفس في البداية مشتاقة لهذه[8] الأحوال ، - أعني[9] بالأحوال الآلات - ومحبة لهذه الحركات ، حتى يتهيأ لها زاد الآخرة ، وتتوصل[10] إلى الغاية[11] ؛ فتبدل[12] العداوة بالمحبة ، والمخالفة بالموافقة ، والجفاء بالوفاء ، والفناء بالبقاء .

---

(١) تولى النطق كالأمير الغالب في مدينته في أ
(٢) أخذ في أ
(٣) وحافظاً في أ و ب
(٤) الطيور في أ
(٥) مقراً في أ
(٦) يديه في ب
(٧) قوايم في أ
(٨) إلى هذه في ب
(٩) ناقصة من ب
(١٠) يتوصل في أ
(١١) لقائه في ب و ج
(١٢) فيتبدل في أ

والنفس عند ارتحالها عن أرض البدن ، إن كانت مطلعة على أسرار النطق ، طائعة[1] لأوامر الرب بالصدق ، توفاها الله بلطفه ، وأنزلها في فناء عطفه . كما قال تعالى : « اللهُ يَتوفّى الأنفُس حينَ موتِها » . وإن انهمكت في الشبهات[2] ، وغرقت في بحار الظلمات ، واحترقت بنيران[3] الشهوات ، تخرج[4] من الدنيا بغير زاد ، وتقدم[5] على الله بغير حجة ، وتكون[6] كما أخبر الله بقوله : « الذينَ تتوفاهمُ الملائِكةُ ظالمِي أنفُسهمْ »[7].

فقد بان بما ذكرناه ، أن شرف الانسان بالنطق ، وتلفه[8] أيضاً بالنطق . وإلى هذه المعاني[9] أشار سبحانه بقوله : « ومَا كُنَّا مُعَذِّبينَ حتَّى نَبْعثَ رَسولاً »[10].

---

(١) طايعة في أ
(٢) الشهوات في أ
(٣) نيران في أ
(٤) يخرج في أ
(٥) يقدم في أ
(٦) يكون في أ
(٧) ٢٨ ، النحل
(٨) نيله في ب
(٩) هذا المعنى في ب
(١٠) ١٥ ، الاسراء

وقال تعـالى : « وَما كانَ اللهُ لِيُعذبَهمْ وأنتَ فِيهمْ ، وَما كَانَ اللهُ مُعذِّبَهمْ وهمْ يَسْتغفِرون »[1] . وقال : « وأنْذِرهمْ يومَ الحسرةِ إذْ قُضيَ الأمرُ وهم في غفلةٍ ، وهم لا يُؤمنون[2] » . وقال : « وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعـالمين »[3] .



(١) ٣٣ ، الأنفال (٢) ٣٩ ، مريم

(٣) ١٠٧ ، الأنبياء .

الفصل الرابع

وإذ ذكرنا[١] طرفاً من حقيقة النطق ، وماهيته ، ولميته ؛ فنريد أن نذكر[٢] أيضاً أن النطق صفة الخلق لا صفة الخالق.

اعلم أن النطق وان كبر أمره ، وعظم قدره ، وارتفع شأنه ، ولاح برهانه ، واستوى بنيانه ، وعلت أركانه ، فهو[٣] صفة النفس الانسانية ، ووصف العقل البشري[٤] ؛ إذ ليس هو إلا عبارة النفس الانسانية . والنفس الانسانية جوهرة حية عالمة[٥] ، فعالة ، دراكة ، علامة . وأن هذه الجوهرة في بداية[٦] الفطرة ، وأول الإقبال على المضغة ، جوهرة ساذجة غير منقوشة ؛ بل هي قابلة للصور ، مستعدة لتحصيل العلوم ؛

---

(١) وإذن قد قدمنا في ب
(٢) يذكر في أ
(٣) وهو في أ
(٤) البشر في ب
(٥) ناقصة من أ
(٦) بدايته في أ

ما فيها نقش لا من خير ولا من[1] شر ، ولا من علم ولا من جهل ، كما قال النبي ﷺ : «كل مولود[2] يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه[3]» . وقال ﷺ[4] : «خلق الله الخلق حنفاء[5] ، فاحتالهم[6] الشياطين[7]» ، فاذا تعلقت بالبدن نوعاً من التعلق ـ أعني تعلق إقبال لا تعلق حلول واتصال[8] ـ فانه برهان بالبراهين الواضحة ، والحجج اللائحة ، إن النفس غير متمكنة ، وغير حالّة في البدن بوجه من الوجوه ؛ بل هي مقبلة عليه ، ومدبرة له . وهذه مسألة مفروغ[9] منها ، لا يحتاج إلى بيانها .

---

(١) ناقصة من ب (٢) مولد في أ

(٣) حديث كل مولود ... قال العراقي متفق عليه من حديث أبي هريرة . الاحياء ٣ : ٦٤ ، وفي موطأ مالك ٢ : ٢٤١ والبخاري ٨٢ كتاب القدر بألفاظ أخرى .

(٤) عليه السلام في ب و ج (٥) حنفا في أ

(٦) واحث الله في ب ، واختلبهم في أ

(٧) الشيطان في ب ، وفي النهاية لابن الأثير في مادة جول ومادة حول ، لأن الحديث ورد فاحتالهم الشياطين وورد فاجتالهم ، أما في الأصل فقد أورد الغزالي بلفظ فاختلبهم .

(٨) ايصال في أ (٩) مفروضة في ب

وإذا أقبلت النفس في بداية الفطرة ، فأول الأشياء تكون غير قابلة للمعاني المعقولات ، غير قوية على إدراك المحسوسات ، ولا فيها رسوم من العلوم الأوليات ؛ مثل التفاوت بين الكليات والجزئيات ، ومثل الأشياء المساويات لشيء واحد فهي أيضاً متساويات ؛ فان هذه الأشياء تنالها[1] النفس بأدنى تفكر ، وأقل روية . فاذا انتقل الجنين إلى الطفولية ، تقوى[2] بعض الحواس. فاذا انتقل إلى الصبي ، تتم[3] قوة الحواس ، وتدرك[4] كل حاسة محسوساتها .

ثم إن النفس تقبل تعلّم المفطورات[5]، فحينئذ تكون عقلاً غريزياً . ثم بعد ذلك تنتقل إلى الشباب ، ويحصل للنفس إدراك بعض المعقولات ، وتقدر على تَعلُّم المركبات ، وتعرض عن اللهو واللعب، وتشتغل بتحصيل الصور ونقش الأشكال بالبيان[6]، والبيان[7] بما سبق عليه الكتاب ؛ ويعلمه الله بالعناية كلماته الإلاهية ،

---

(١) ينالها في أ
(٢) يقوى في أ
(٣) تم في أ
(٤) يدرك في أ
(٥) في الأصل المفطورات
(٦) البنان في أ
(٧) البنان في أ

بكتابته البشرية ، كما قال الله تعالى : « اقرأ وربُّكَ الأكرم الذي علَّم بالقَلَم ، علَّم الإنسانَ ما لم يَعْلم[١] » . وقال سبحانه[٢] وتعالى : « خَلَقَ الإنسانَ ، علَّمهُ البَيان[٣] » .

ففي أول الحال تسمى نفساً ساذجة ، ثم عقلاً غريزياً ، ثم عقلاً بالقوة والملكة ، ثم عقلاً بالاكتساب ، ثم عقلاً بالفعل .

فهذه النفس إذا قبلت صور المعلومات يقال لها عقل ، وإذا تمكنت من العبارة عن معقولاتها تسمى[٤] نطقاً . والنفس جوهرة ، والنطق صفة من صفاتها ؛ فلأجل هذا المعنى لا يطلق اسم الناطق[٥] على الباري تعالى ، لأن الناطق هو العاقل ؛ ولا يقال للباري عاقل ، لأن العقل جوهر ، والعاقل من جوهريته[٦] ، والباري تعالى ليس بجوهر ؛ فاذن ليس بعقل . والعقل أشرف من النفس، والنطق صفة النفس ، والنفس جوهرة ، والعقل في الجوهرية

---

(١) ٣ ، العلق

(٢) سبحانه و ، ناقصة من ب

(٣) ٣ و ٤ ، الرحمن

(٤) يسمى في أ

(٥) النطق في ب

(٦) متجوهر في ب و ج

أشرف من النفس . والباري تعالى[1] خالق[2] العقل وإلهه ، وربه وبارئه ومبدعه . وإذا كان مبدع الجوهر وخالقه كيف يوصف بأوصاف الجوهر ؛ وإذا كان بارىء العقل كيف يوصف[3] بصفة العقل .

فاذن الباري تعالى رب العقل والنفس والنطق جميعاً ؛ فالعقل أثر من كلامه ، والنفس سر من أمره ، والنطق صفة شريفة مخلوقة . وهو منزه عن هذه الأوصاف والصفات ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .



(١) جل ثناؤه في ب (٢) معبود في أ

(٣) يتصف في ب .

الفصل الخامس

اعلم أن النفس الكلية إذا أقبلت على الجسم يسمى إقبالها نفساً إنسانياً . وذلك الاقبال لا يكون إلا بأمر الباري جل ثناؤه . والعقل الأول الكلي إذا فاض على الجسم يقال لفيضه نطقاً .

وأول ما أثرت النفس الكلية إنما أثرت[1] في الجسم المطلق ؛ فصار الفلك جسماً[2] حياً . وأول ما أفاض[3] العقل بالنطق أفاض على الفلك ؛ فصار الفلك حياً ناطقاً[4] .

فاذن الفلك حي ناطق ، ثم بعده الانسان حي ناطق مائت. فالنطق من العقل ، والحياة الانسانية من النفس . وإن كان في العبادة إثنينية؛ ففي[5] الحقيقة وحدة[6] لا تتعدد إلا بالترتيب .

---

(١) عبارة إنما أثرت ناقصة من ب (٢) حياً ناطقاً في ب و ج

(٣) عبارة وأول ما أفاض ناقصة من ب (٤) حتى صار ناطقاً في ب و ج

(٥) فهي في ، في ب (٦) واحدة في ب

فقد بان بما ذكرنا أن للملائكة نطقاً ، وللانسان نطقاً ، وللعقل الكلي نطقاً[1] ، وللأنبياء عليهم السلام نطقاً ، وللعلماء نطقاً ، وللمؤمنين نطقاً ؛ فنطق المؤمنين كنطق الأفلاك ، ونطق العلماء كنطق الملائكة ، ونطق الأنبياء عليهم السلام كنطق العقل الكلي الذي أفاض[2] ، وهو جوهر مطلق فرد عالم بذات بارئه ، كامل بكلمته ، مكمل مادونه بفيضه ورحمته .

والله تعالى منزه عن الناطقية والعاقلية والجسمية والجوهرية ، وذاته أعلى من أن يقال أعلى ، وأجل من أن يقال أجل .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) عبارة وللانسان ... نطقاً ، ساقطة من أ

(٢) عبارة الذي أفاض ، ناقصة من ب

الباب الثاني

في الكلام والمتكلم

وفيه[1] فصلان :

الفصل الأول

في الكلام وماهيته[2] وحقيقته

اعلم[3] أن الكلام على ضربين :

أحدهما يطلق في حق الباري سبحانه[4] .

والثاني في حق الآدميين[5] .

أما الكلام الذي ينسب[6] إلى[7] الباري سبحانه[8] ، فهو

---

(١) وبه في ج (٢) في ماهية الكلام وحقيقته في ب

(٣) اعلم أسعدك الله في الدارين في ب ، وأسعدنا الله وإياك في الدارين في ج

(٤) تعالى في ج (٥) الآدمي في ب

(٦) ساقطة من أ (٧) في ، في أ ، وفي حق في ج

(٨) جل ثناؤه في ج .

صفة من صفات الربوبية . ولا مشابهة بين صفات الباري[1] وبين صفات الآدميين ؛ فان صفات الآدميين زائدة على ذواتهم ، لتتكثر وحدتهم ، وتقوم[2] أنيتهم بتلك الصفات ، وتتعين حدودهم ورسومهم بها ، كما فرّق الحكماء[3] بينهما ، وعبروا عنهما بالذاتي[4] والعرضي اللازم غير المفارق[5] وغيره ؛ كالنطق والضحك فان أحدهما يقع في الحد ، والآخر يقع في الرسم .

وصفة الباري جل تناؤه لا تحد ذاته ولا ترسمها[6] ؛ فليست إذن شيئاً زائداً على العلم الذي هو حقيقة هويته تعالى وتقدس . ومن أراد أن يعد صفات الباري تعالى[7] فقد أخطأ ، لأن العاد لايدخل في المعدود[8] ، ومن ظن أن صفاته تشابه صفات الآدميين فقد أشرك ، لأن الخالق لايشبه المخلوق .

فالواجب على العاقل أن يتأمل ، ويعلم أن صفات الباري تعالى

---

(١) تعالى في ج
(٢) يتقوى في ب
(٣) الحكما في ب
(٤) الذواتي في ب
(٥) المغاير في ج
(٦) ترسم في ج
(٧) ساقطة من ب
(٨) المحدود في أ

لا تتعدد[١] ولا ينفصل[٢] بعضها عن بعض إلا في مراتب العبارات ، ومدارج الاشارات ، كما إذا أضيف علمه إلى سماع[٣] دعوة[٤] المضطرين يقال سميع ، وإذا أضيف علمه إلى رؤية كل صغير وكبير[٥] يقال بصير ، وإذا نيل منه الرزق يقال رازق[٦] ، وإذا فاض من مكنونات علمه على قلب أحد من الناس بأسرار إلهيته[٧] ودقائق جبروت ربوبيته يقال متكلم . وليس بعضه آلة السمع ، وبعضه آلة البصر ، وبعضه آلة الكلام ؛ بل كله بكلية[٨] ذاته مرتب ذاته ، بحسب إرادته ، كما يعلم ويشاء ، ولا[٩] يشغله شأن عن شأن ، سبحانه لا إله إلا هو الجواد المنان .

فاذن كلام الباري سبحانه ليس بشيء[١٠] سوى إفاضة مكنونات[١١]

---

(١) تعد في ب و ج
(٢) ينفصل في أ
(٣) اسماع في أ
(٤) دعوات في ج
(٥) ضمير الصغير والكبير في أ وكبير وصغير في ج
(٦) رزاق في ج
(٧) الالاهية في ب و ج
(٨) بكليات في ب و ج
(٩) ساقطة من ب
(١٠) شيئاً في ج
(١١) مكنونة في ج

علمه على من يريد إكرامه من خلقه[1] ، كما قال تعالى[2] : « ولمَّا جاءَ موسى لِميقاتِنا » وكلمه ربه شرفه الله[3] بعزه ، وقربه بقدسه ، وأجلسه على بساط أُنسه ، وشافهه بأجل[4] صفاته ، وكلمه بعلم ذاته ؛ كما شاء كلم ، وكما أراد[5] سمع ، ولا يندرج كلامه تحت الكيفية ، ولا يحتاج إلى سؤال الهليّة ، ولا يوصف بالماهية والكمية ، بل كلامه كعلمه ، وعلمه كإرادته ، وإرادته صفاته[6] ، وصفاته[7] كذاته ، وذاته أعلى من التنزيه والتكثير[8] ، وصفاته أجل من التفصيل والتفسير ، خالق كل شيء ، وهو على كل شيء قدير . فعلمنا قليل ، وكلامنا صغير ، لأن[9] كلامنا أثر نطقنا ، وعلمنا نتيجة تعلمنا وتفكرنا . وأما علم الباري[10] فهو موجب العقل ، وكلامه موجب النطق .

---

(١) من خلقه ، ساقطة من أ (٢) جل من قائل في ج
(٣) الله تعالى وجل في ب
(٤) بأجل في ب ، وشـــافهه الرب بصفاته في ج
(٥) شاء في ب و ج (٦) و (٧) صفاته في ب
(٨) التكبير في ج (٩) فان في ب و ج
(١٠) سبحانه في ب .

وأن الباري تعالى لا يعقل ثم يعلم ، ولا ينطق بالفكر ثم يتكلم . بل يعلم وعلمه قاعدة الأفعال ، ويتكلم وكلامه أساس الأقوال والأحوال ، وإذا كان الأمر بحسب ما بيّنا فكيف يُطلّع على كلماته ، وكيف تُعد[1] دقائق صفاته ، وكل كلمة من علمه عالم في حسنا ، وكل حرف من كلماته روح في بدننا[2] . وإذا أحاط[3] بكل شيء علماً ، وأحصى[4] كل شيء عدداً ، فكيف نفسر كلمة من كلماته[5] ولو تكلف الفكر أبداً . كما قال تعالى : « قُلْ لوْ كانَ البحرُ مِداداً لِكلماتِ ربِّي لَنفِدَ البحْرُ قبلَ أنْ تنفَدَ كلِماتُ ربِّي ولوْ جِئنا بمثلهِ مَدداً[6] » . فهذه حقيقة كلام الباري جلّ ثناؤه .

وأما كلام الآدميين ، فيقال للعبارة[7] المحصلة المنظومة الصادرة

---

(١) تتعدد في ب و ج
(٢) أبداننا في ب و ج
(٣) أحاطت في أ
(٤) أحصت في أ
(٥) كلامه في ج
(٦) ١٠٩ ، الكهف
(٧) العبارة في ب .

عن الفكر النطقي ، والحدس العقلي ، قبل إلقاء القول عليه ، كلام . فما دام المعنى[1] مخفياً مستوراً في حجر الفكر يسمّى نطقاً . فاذا صدر عن الفكر ، ودنا عن[2] القول يسمى كلاماً . فاذن النطق يحتاج إلى مخرج ومؤد[3] ليصير كلاماً ، والكلام يحتاج إلى عبارة ونظم ولفظ ليصير قولاً ، والقول يحتاج إلى حركة وآلة[4] وقطع صوت ليصير حديثاً ، والحديث يحتاج إلى قلب ذكي ، وسمع فهيم[5] ، فيرجع اليه كما بدا ليصير سماعاً . وهذه المراتب إنما تنتظم[6] في حق الآدمي لأنه مركب زماني ؛ تظهر[7] أفعاله وأقواله بالدفعات في أوقات الزمان .

فأما كلام الباري[8] فغير[9] هذا ؛ فانه عالم بجميع[10] الأشياء، علمه لا يتغير ولا يتبدل ، ولا يحدّ ولا يعدّ . كما قال سبحانه :

---

(١) الكلام في ج
(٢) إلى في ج
(٣) ساقطة من ب و ج
(٤) بدون الواو في أ
(٥) وفهيم في ب وفهم في ج
(٦) ينتظم في أ
(٧) يظهر في أ
(٨) جل وعلا في ب
(٩) بغير في أ و ج
(١٠) لجميع في أ

« وَلا يُحيطونَ بشيءٍ مِنْ عِلمِهِ إلاّ بما شاءَ »[1]. فكلامه[2] إفاضة علمه[3] بحسب إرادته كما بيّنا قبلُ، وسائر الموجودات نتائج كلماته. وكلماته باقية ببقاء علمه، لا تبديل[4] لكلماته، ولا تغير[5] لعلمه، ولا مانع لأحكامه. كما أخبر سبحانه[6]: «وتمَّتْ كلماتُ ربِّكَ[7] صِدْقاً وعَدْلاً لا مبدلَ لكلماتِهِ»[8]

وإذا كان علمه هو[9] ذاته، فكما[10] لا تفنى[11] ذاته لا يتناهى علمه. وذاته ليست[12] بفانية[13]، وعلمه ليس بمتناه، وكلامه ليس بمنقطع، لأن الكلام باق ببقاء الذات[14]. ولا فناء لذاته، فكلامه كعلمه، وعلمه كذاته، و « كُلُّ شيءٍ هالِكٌ إلا وجهَهُ، له الحكمُ وإليهِ تُرجعون[15] ».

---

(١) ٢٥٥، البقرة

(٢) وكلامه في أ

(٣) عليه في أ

(٤) مبدل في ب و ج

(٥) مغير في ب و ج

(٦) وتعالى في ب

(٧) ربي في ب و ج

(٨) ١١٥، الأنعام

(٩) هو صفة ذاته في ج

(١٠) فما في ب و ج

(١١) يفنى في ب

(١٢) ليس في ب

(١٣) بفان في ب

(١٤) الذات العلية في ج

(١٥) ٨٨، القصص.

الفصل الثّاني

اعلم أن المتكلم الحقيقي الذي لا انقطاع لكلامه ، ولا مبدل لكلماته[1] ، هو الله الذي لا إله إلا هو . لأنه لا يتكلم بآلة خارجة ، ولا يعبر معنىً غامضاً من علمه بتفكر وروية ، بل باطن علمه وظاهر كلامه واحد . لأنه واحد بذاته ، وواحد بصفاته من جميع جهاته . ولو احتاج إلى آلة وعدة ومادة ومدة[2] لزالت[3] الوحدة الحقيقية عن ذاته وصفاته ، وعرضت الكثرة المغيرة .

وقد عرفت الحكماء بأن الإله هو الحق[4] المحض الذي لا كثرة في صفاته ، ولا حد لذاته ، ولا آلة لكلماته .

---

(١) عبارة « اعلم ... لكلماته » ساقطة من ج

(٢) ساقطة من ب و ج (٣) لأزيلت في ب و ج

(٤) الاله هو الحق ، الله هو الحق في ج

وإذا كان المتكلم بالحقيقة هو الباري فاذا سُمي غيره متكلماً يكون على طريق[1] المجاز ؛ إلا من يتبع كلام الباري سبحانه ، ويؤمن[2] بتفسيره وتأويله ، ويقوم بأوامر تنزيله ويودي[3] حق ترتيله ؛ فحينئذ يكون متكلماً .

وهذا الجدال الذي تسميه[4] المعتزلة وأتباعها كلاماً ، فذلك خرافات الحديث ، وفضلات[5] المنطق ، ورأس البدعة ، وأصل الزندقة ، ومن اشتغل بذلك الجدل[6] واغتر بمطالعة[7] ذلك[8] الكلام فقد شرع في محدثات الأمور . وقد قال النبي ﷺ[9] : « إياكم ومحدثات الأمور فانها بدعة ، وكل بدعة ضلالة[10] » . وقال عليه السلام : « كل كلام ليس يُذكر الله فيه فهو لغو ، وكل صمت ليس بفكر فهو غفلة » .

---

(١) الطريق في أ (٢) ويرمز في ج

(٣) ويودي حق ترتيله ساقطة من ج (٤) يسميه في أ

(٥) فاضلة في ب (٦) ساقطة من ب

(٧) بطالعة في ج (٨) ذاك في ج

(٩) عليه السلام في ب

(١٠) ورد الحديث بعبارة أخرى في سنن النسائي ، كتاب صلاة العيدين.

وإذ بيّنا أن المتكلم على الحقيقة هو الباري تعالى لأنه سمى[1] نفسه متكلماً ، فقال: « وكلَّمَ اللهُ موسى تكليماً »[2].
فالكلام بالحقيقة[3] كتابه[4] المنزل المشرف ، الذي قال تعالى فيه : « إنَّهُ لقرآنٌ كريم في كِتابٍ مَكْنونٍ لا يَمَسُّهُ إلا المُطهَّرون[5] » . ولا يمس ظاهره إلا المتحرز من[6] المنهيات[7] الشرعية[8] ، ولا يمس حقائقه[9] إلا المطهرون[10] من[11] أدناس الطبيعة ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

وإذا كان كلامه صفة ذاته ، ولطيفة علمه ، فما أفاض من كلامه علينا يكون حديثاً من قديم بُرْهانه[12]، وآية من عظم[13]

---

(١) ساقطة من ج
(٢) ١٦٤ ، النساء
(٣) فيالحقيقة ، بالحقيقة فيج
(٤) كأنه في أ
(٥) ٧٨ ، الواقعة
(٦) المتحرزين في ب والمتحرز من صفة في ج
(٧) منهيات في ب
(٨) الشريعة في ب و ج
(٩) باطنة في ج
(١٠) المتطهرون في ج
(١١) من جملة في ج
(١٢) بريانه في أ
(١٣) عظيم في ج .

شأنه . كما قال تعالى : « اللهُ نزَّل أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثاني[1] » (الآية) فالحديث الحسن كلام الله القديم المنزل المحفوظ في صدور الرجال[2] الراسخين ، المعلوم في قلوب المؤمنين ، الذي لا ريب فيه هدى للمتقين . وهذه الكلمات[3] النبوية المستخرجة من أسرار[4] الإلهية التي نطق بها الرسول ﷺ ، وصدقه الله تعالى في جميع منطقه حيث قال : « وَما يَنطِقُ عنِ الهوى إنْ هُوَ إلا وَحيٌ يُوحى[5] ».

فقد بان بما ذكرناه أن المتكلم الحقيقي هو الله سبحانه ، والكلام هو القرآن . وقال رسول الله ﷺ : « القرآن كلام الله غير مخلوق » ، ومن قال إنه مخلوق فهو كافر ملحد[6] فاعلم أيها الطالب أن ما سوى الله تعالى باطل ، وما سوى كلامه هذيان . وصفات الله[7] من الله ، وأخبار

---

(١) ٢٣ ، الزمر

(٢) ساقطة من ب

(٣) الكلمة في ب و ج

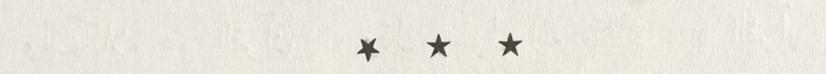
(٤) الأسرار في ب

(٥) ٤ و ٥ ، النجم

(٦) كلمة فصل في ب

(٧) وصفات .

رسوله[1] ﷺ من أسرار القرآن ، ومن لم يؤمن بهذا القرآن فقد استحق الخذلان والحرمان[2] ، لأنه موصوف بالنفاق والكفران ، كما قال سبحانه : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أنزَلَ اللهُ فأولئِكَ هُمُ الكافِرون[3] » .



(١) نبيه في ب (٢) والفراق في ج

(٣) المائدة ، ٤٤

الباب الثالث

في القول

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول

في شرح القول

اعلم أن قول الإنسان لطيف غير ثابت في الهواء ، ولا يظهر القول إلا بواسطة الصوت ، والصوت هو قرع يحدث عند اصطكاك الاجرام بالهواء [1] ، فالهواء [2] إذا انضغط يكون أصواتاً ، والصوت إذا انقطع يكون حروفاً [3] ، والحروف إذا

(١) ساقطة من أ و ج (٢) ساقطة من ب و ج

(٣) حرفاً في ج .

تركبت تكون[1] كلاماً ، والمعنى النطقي النفسي[2] الروحاني إذا اتصل بها يكون نطقاً ، فاذا لفظت الألسنة[3] بها يكون قولاً .

والقول[4] : الكلام التام ، الظاهر ، المفيد ، المنقول إلى أسماع المستمعين ، بأن يحمل الهواء[5] ذلك الصوت الحامل لتلك الكلمات. ولو كانت صور الأقاويل باقية في الهواء[6] بحيث يستفيد بها الناس ، لما احتاجوا إلى الكتابة ، وتقييد الأقوال في الصحائف[7] والدفاتر . لكن لما كان الهواء لطيفاً ، والأصوات منقطعة ، والأقاويل في الهواء غير ثابتة ولا دائمة ، احتالت[8] النفوس[9] الانسانية بأسباب شتى طلباً لبقاء[10] المقولات . وسنبين هذا في موضعه[11] .

---

(١) يكون في أ

(٢) الانساني في ب و ج

(٣) الألسن في ج

(٤) فالقول هو في ب

(٥) الهوا في أ

(٦) الهوا في أ

(٧) المصاحف في ج

(٨) أحالت في أ

(٩) النفوس في ب

(١٠) العبارة ، طلب البقاء للمقولات في ب

(١١) إن شاء الله في ب .

فاذن القول هو الـكلام التام الجاري على الألسنة ، ولا يقال للـكلام التـام قول ما لم يظهر بحيث تحيـط به آذان المستمعين ؛ لأن المعنى المفهوم المركوز في الأصـل يسمى نطقـاً ، والنطق المنظوم التام الفعل[1] يسمى كلاماً . ويصح النطق والـكلام بغير واسطـة ومستمع لأنهما متعلقـان بذات المتكلم تعلق صفة وصورة ، والقول لا يصح إلا مع المستمع المخاطب من خارج . فالناطق مع نفسه ناطق ، وإن كان ساكتاً بلسانه ، والمتكلم بصفته متكلم وإن كان[2] فارغاً عن[3] بيانه . فأما[4] القائل فلا يبين معاني[5] سره[6] ولا يعبر عن مفهومات علمه إلا بعد علمه[7] بمعين[8] مخاطب، وتمكن مستمع .

والله تعالى متـكلم أزلاً وأبداً بلا انقطـاع ولا استغراق ولا اشتغال بالماضي من الزمان والمستقبل منه ، لأنه متكلم بصفـة[9]

---

(١) بالفعل في ب

(٢) هو في ب

(٣) في ، في ب

(٤) وأما في ب

(٥) تعلق في ب

(٦) سبحانه وتعـالى

(٧) ساقطة من ب

(٨) تعيين في ب

(٩) بالصفة في ب و ج .

غير ناطق بالقوة . فاذا أظهر كلامه على بعض عباده يكون قائلاً بنيته الإظهار ، وسبب الاعتبار . وإذا أعرض عن المستمعين والمخاطبين إعراض جلال وجمال وكمال لا إعراض ملل[1] وزوال ، فيكون متكلماً بذاته أزلاً وأبداً ، أولاً وآخراً ، ظاهراً وباطناً .

واعلم أن قول الانسان لايقاس على قول الله سبحانه ، لأن قول الله تعالى ألطف من أن يندرج تحت الصوت ، أو يقبل مدة الزمان ، وترتيب الدفعات ؛ بل هو ظاهر بالإيجاد[2] ، ومنظوم بفنون المبدعات والصور ، لا بالأصوات ومخارج الحروف ، فان الله تعالى فوق الزمان ، بل هو فوق الدهر الذي هو عنصر الزمان ، لا يقبل التغير بالحدثان ، والانقلاب بالدوران ، ولا يكون قوله كلمة بعد كلمة ، أو[3] عبارة بعد عبارة ، لأن البعدية والقبلية في زمان من الأزمنة ، وكتاب الله القديم[4] بمعزل عن القبلية والبعدية الزمانية ،

---

(١) ملال في أ

(٢) ويضاف لا بالايجاد في أ

(٣) و في ب و ج

(٤) وقديم في أ

والكثافة[1] عن قوله منفية ، واللطافة الأصلية من قوله[2] كلية أمرية .

وأما قول الإنسان فلطيف بوجه ، كثيف بوجه ؛ أما لطافته[3] فمن قبل المعاني الروحانية ، ومن جهة امحائه[4] في الهواء ، أو[5] اندراس آثاره بعد سكون القائل وسكوته ؛ وأما كثافته فمن قبل أدواته ومراتبه وآلاته ومخارجه وعدده . فقول[6] الانسان إذا ظهر على لسانه يكون كثيفاً بالإضافة إلى قوله الروحاني قبل بيانه . وقول الله تعالى لا يشابه قولنا باستدعاء الآلة ، واحتياج المدة ، ولكنه مفيد لذوي الألباب وأصحاب الحاجات ، فأقاويله[7] هي أُصول الكائنات ، كما قال عز وجل : « إنما قولُنا لِشيءٍ إذا أردْناه أنْ نقولَ لهُ كُنْ فيكون[8] » .

---

(١) الكتابة في ب
(٢) من قوله ساقطة من ج
(٣) للطافة في ج
(٤) امحايه في أ
(٥) و في ب
(٦) منقول في أ
(٧) الالهية في ب و ج
(٨) ٤٠ ، النحل

الفصل الثّاني

في غرض القول وحقيقته

اعلم أن جوهر الانسان بالحقيقة [١] هو [٢] النفس الناطقة العاقلة المدركة العاملة [٣]، وأن جميع صور المعقولات فيها بالقوة ، فاذا تعلمت [٤] واستفادت ممن هو أكمل وأعقل وأعلم ، ظهرت تلك الصور التي بالقوة فتصير [٥] عقلاً بالفعل ، وتستغني [٦] عن مطالبة [٧] المحسوسات والتلذذ بلذة الجسمانيات . وهـذه النفوس الناطقة كانت صافية لطيفة مشعة [٨] ، لا يمنعها شيء من الحجب

---

(١) الحقيقية في أ
(٢) هي في أ
(٣) العاملة في ب و ج
(٤) ساقطة من ب و ج
(٥) فيصير في أ
(٦) ويستغني في أ
(٧) مطالعات في ج ولعلها مطالعة
(٨) مشقة في أ ومشتقة في ب و ج

والموانع ، لكنها لما اتصلت بهذه الأشخاص الترابية ، وتسربلت سربال[1] الجسدانية ، وانحصرت في حيز البشرية ، احتجبت بحجب الحواس ، واستترت بأستار غلاظ كثاف ، وامتنعت عن إفاضة المعاني واستفاضتها بمجرد الصفاء[2] واللطافة[3] المعراة عن المواد والآلات . وأنها كاملة بذاتها ، وفيها المعاني المعقولة بحيث لا تحتاج إلى شيء من خارج . غير أن النفس المستفيدة إذا أرادت أن تتعلم شيئاً من النفس المفيدة وهما في حصار البدن ، لا تتمكن من التعلم إلا بعد استماع من خارج ، فيتهيأ السمع للبدن . والاستماع لا يكون إلا بعد بيان وعبارة ، فيتهيأ اللسان والحناجر للبدن[4] ، حتى يعبر[5] العالم[6] المفيد[7] بلسانه عن المعاني

---

(١) بسربال في ب
(٢) الصفا في أ
(٣) اللطافات في ب
(٤) للبر في ج
(٥) فيقرر في ج
(٦) العلاج في ج
(٧) المعيد في ب .

المركوزة[1] في نفسه ، ويبلغها ببيانه إلى المستفيد[2] المستمع بآذانه . فاخترعت[3] الحكمة الإلهية بتهيئة[4] أسبابها ، وتمهيد قواعدها ، وتسوية آلاتها ، لكيلا تنقطع مواد العلوم عن أصول النفوس . والنفس إذا عبرت عن مفهوم الكلام عبارة تظهر[5] فائدة المعبر للغير[6] يسمى قولاً ، وإن كان لا يعرفها في الحال بعض المستمعين لآفة أو قصور أو تقصير .

فاذن إفاضة[7] النفس لا تكون إلا بأحد طريقين[8] ؛ إما بالقول، أو بالكتابة . فالقول لطيف روحاني ، غير أنه ممزوج[9] بشيء كثيف جسماني وهو الصوت والهواء ومخارج الحروف وأشكال الحروف . فان الصوت وأشكال[10] الحروف كثيفة بالاضافة إلى المعنى المحض الروحاني ، ولكنها لطيفة بالإضافة إلى الكتابة[11] .

---

(١) المذكورة في ج (٢) المستعيد في ب

(٣) فاختالت في ب و فاختارت في ج (٤) في تهيئة في ب وفي نهاية في ج

(٥) يظهر في أ (٦) للمعبر في ج

(٧) إيضاح في ب وإيضاح التعبير في ج (٨) طرفين في ب

(٩) مخرج في أ (١٠) وأشكال في ج

(١١) بالاضافة إلى الكتابة ، بالكتابة ، في ج

فالمكتوب[1] آثار ونقوش في الدفاتر ؛ وأما القول فهو آثار ومسموعات[2] ثابتة في النفس دون زوائدها . فالقول إذا صدر عن لسان المتكلم ، وانتظمت عبارته ، يحمله الهواء بواسطة الصوت في أصداف الحروف ، ويأخذه عن المخارج والحناجر والحنك التي هي آلات الكلام ، كالمزامير التي هي آلات الصوت . ويبلغ المعاني الملبوسة المركبة المرتبة إلى آذان المستمعين . فالنقوش تبقى في الخيال والأصوات مع أشكال الحروف التي[3] تقع في الآذان ، وسجلها[4] ونظمها يصل إلى المفكرة[5] ، وصورها تصل إلى الحافظة ، ومعانيها المعراة المبرأة عن المواد والعناصر متصلة بالنفس الناطقة[6] العاقلة ، وتصير زينتها وحليتها وآلة كمالها[7] وهيئة صورتها ، وسبب سعادتها[8] ومميزتها بها عن غيرها ، وهذا حقيقة قول الآدميين .

---

(١) فان المكتوب في ب

(٢) مصنوعة في أ

(٣) ساقطة من ج

(٤) ساقطة من ب و ج

(٥) الفكر في ج

(٦) ساقطة من ج

(٧) عملها في ج

(٨) سماوتها في أ

الفصل الثّالث

فأما[1] قول الله عز وجل فليس إلا إفاضة المعاني على العقول بحسب قوتها ، وعلى قدر طاقتها ، من غير بخل ولا منع[2] ولا ميل ، تعالى الله عما يقول المشركون[3] والظالمون علواً كبيراً ، لأن الله ليس بجسم مركب ، ولا جوهر محدد[4] ومقدر ، حتى يكون بعض كلامه بالفكر وبعضه بالقوة[5] وبعضه بالفعل ، فانه واحد كامل قادر قيوم لا يحتاج إلى التفكر[6] ولا إلى استخراج[7] المعنى من القوة إلى الفعل ، فيكون علمه سبحانه كلاماً ، وإفاضته قولاً ،

---

(١) وأما في ج

(٢) ولا مانع في ج

(٣) ساقطة من ب

(٤) محدود في ب

(٥) وبعض بالقوة ، وبعض كلامه بالقوة في ج

(٦) الفكر في ج

(٧) استخراج في ج

و[1]حدود الناس ومراتب الخلق مقادير[2] قوله[3] . فواحد يسمع بصفاء نفسه وقوة عقله صريح القول فيكون صاحب وحي ورسالة ، وآخر يسمع بقوة فكره وغلبة وهمه فيكون صاحب إلهام وحديث ؛ وعلى هذه[4] المراتب ؛ فبعضهم لا يسمع من كلام[5] الله تعالى إلا الحروف[6] ، وبعضهم يسمع[7] كتاباً منزلاً مجملاً مثل التوراة والأنجيل والفرقان[8] ، ويعلم أنها كلام الله سبحانه[9] وقوله ونظمه وفيضه ونوره وجوده وعزته وقدرته ، ويعلم أنه لا نظير له ولا وزير ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وتحت كل كلمة من بيان قول الله جل ثناؤه أسرار كثيرة

---

(١) وأما حدود في ب
(٢) مقادر في ج
(٣) قوامهم في ج
(٤) هذا في ب
(٥) قول في ب
(٦) حروفاً في ب
(٧) لا يسمع إلا ، في ب ، ولا يسمع في أ
(٨) والزبور والقرآن في ج
(٩) تعالى في ب

لا يحتمل شرحها هـذا الـكتاب . فعليك أن تصفي نفسك من كدورات الطبيعة ، وتنبهها من رقاد الغفلة بتـأديب الشريعة ، حتى تسمع قولاً بغير صوت ، وتنال حيـاة بغير موت ، ولذة بغير فوت . قال الله عز[1] وجل : « هـذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهم[2] » .



(١) تعالى (٢) ١١٩ ، المائدة

الباب الرابع

في الكتابة

وفيه فصلان :

الفصل الأول

في كتابة المخلوقات

اعلم أن الله جلت قدرته ، لما خلق الإنسان وشرفه وفضله على سائر المخلوقات ، جعل نوع الإنسان معاناً[1] بعضه لبعض[2] ، مستمسكاً وحافظاً[3] ، بحيث لا يتم[4] تعايشهم[5] إلا بالمعاونة والمساعدة والمعاضدة . وإلى هذا أشار الرسول عليه السلام بقوله :

---

(١) معلفا في ب
(٢) يبعض في ب و ج
(٣) محافظاً في ب و ج
(٤) تتم في ب
(٥) معائشهم في ب

« الناس كأسنان المُشط في الاستواء[1] » . وبقوله: «المؤمن للمؤمن كالبنيان[2] يشد بعضه بعضاً[3] » .

فقوام الدنيا ، وبقاء العالم ، بمحافظة الناس ، واشتغالهم بكفاية مهمات النوع ، لحرمة[4] المعاش ، ورعاية[5] المصالح ، وعمارة العالم . وهذا لا يكون إلا بفنون الحرف ، وأصناف الصنائع . ولو أراد واحد من الآدميين أن يقوم بجميع الصنائع لم يتمكن له[6] ، ولا بد من معاون ومعاضد . وربما تستدعي صناعة واحدة جماعة من الناس حتى تتم الصنعة ، ويحصل الغرض . والصنائع منقسمة إلى علمية وعملية ؛ والعملية تتم بآلة[7] خارجة ، وأدوات زائدة ، وعدة[8] كثيرة[9] .

---

(١) في الاستواء ساقطة من ب
(٢) كالبنيان المرصوص في ج
(٣) في الأصل المؤمنون كالبنيان ، والحديث في البخاري كتاب ٤٦ باب ٤ ، ومسلم كتاب ٤٥ ، باب ٦٥ ، والجامع الصغير للسيوطي ٢ : ٥٦٩
(٤) بحرمة في الأصل
(٥) وغاية في الأصل
(٦) ساقطة من ب و ج
(٧) بآلات في ب
(٨) عدد في ب
(٩) كثير في ب

ولا بد لكل صانع في صنعته من سبعة أشياء : الحركة، والزمان، والمكان ، والمواد ، والأداة[١] ، والصحة ، والعضو الفاعل الذي هو الآلة . ولو انتقص واحد من هذه السبعة لتعطلت الصنعة[٢] ، وبطلت الفائدة ، وأما الصنائع العامية فهي معرفة الأشياء ، وتصور حقائقها ، وإدراك صورها على ما هي عليه . وهذا التصور لا يحصل إلا بالتعلم ، والتعلم هو طلب كمال النفس، وتحليتها بالصور العقلية ، وتزكيتها عن رذائل[٣] الجسمانية . وطريق التعلم والتعليم والإفادة والاستفادة وبالقول[٤] والاستماع . والقول من الألسنة يصدر ، والاستماع بالآذان يصح ، لكن[٥] الحكماء قالوا : إن القول كتابة لطيفة ، والكتابة قول كثيف ، فاذا انتقل القول من اللسان إلى القلم[٦] ينوب البصر عن السمع . والبصر للمكتوب كالسمع للمقول ، والقلم للكتابة[٧] كاللسان للخطاب[٨] .

---

(١) والأدوات في ج
(٢) الصبغة في ب
(٣) زوائل في أ ودلائل في ب
(٤) بالقول في ب
(٥) ولكن في ب
(٦) القلب في أ
(٧) للكاتب في ب
(٨) للمخاطب في ج

واعلم أن الهواء[1] إذا لطف غاية اللطافة يكون ناراً ، والنار إذا استحالت إلى الكثافة تصير هواء ، والهواء لطيف ، لكن باضافته[2] إلى[3] الماء ؛ وأما باضافته[4] إلى[5] النار فهو كثيف . والكتابة أيضاً لطيفة ، بالإضافة إلى الاشكال ، كثيفة بنسبة[6] الأقوال . ولولا أن الكتابة جارية بين الناس لما تقررت المعاني ، ولا[7] استكملت النفوس ، لأن جميع المعاني المطلوبة ربما لا يتفق[8] تلفظ جميع الألسنة بها مع جميع الطالبين ، فيبطل التعليم[9] ويضيع المتعلم . فالله سبحانه[10] بجزيل لطفه ، ولطيف حكمه[11] ، ألهم بعض عباده[12] حتى استخرجوا[13] من صفاء[14] أذهانهم ، من

---

(١) الهوا في ب

(٢) باضافة في ب

(٣) ناقصة من ب

(٤) باضافة في ب ، والعبارة في ج على النحو التالي : « ...لكن باضافة الماء ، وأما باضافة النار ... » .

(٥) ناقصة في ب

(٦) بالاضافة إلى

(٧) لما في ب

(٨) تتفق بلفظ في ج

(٩) التعلم في ج

(١٠) تعالى في ب و ج

(١١) حكمته في ج

(١٢) عبيده في ب

(١٣) استخرجوه في أ

(١٤) بصفاء في ج

أرحام أفكارهم ، ومعادن أفئدتهم ، هذه الفائدة العامة ، ودبروا لبقاء[1] العلم[2] تدبيراً حسناً ، واتخذوا من الأقلام نواباً للألسنة ، وجعلوا المكتوب للمقول كالأجساد للأرواح ، وكالأصداف للدُّر ، وحصنوا[3] العلوم الروحانية في حصون[4] الأشكال ، وقيدوها في بطون الدفاتر وصدور المصاحف ، لتكون ذخيرة للأخلاف عن الأسلاف . وينتقل العلم من قرن إلى قرن ، ومن قوم إلى قوم ، ومن أهل إلى أهل ، إلى أن يقضي الله أمراً فهو فاعله[5] ومريده . والله[6] سبحانه مَنَّ[7] على نبيه[8] بعلم القلم فقال عز وجل[9] : « اقرأ وربُّكَ الأكرمُ الذي علَّمَ بالقَلَمْ علَّمَ الانسانَ ما لَمْ يعلمْ[10] » . ومن شرف الكتابة أن الله سبحانه وتعالى أقسم بها[11] فقال : « ن ، والقَلَمِ ومَا

(١) ساقطة من ج
(٢) العلوم في ج
(٣) وحصلوا في ج
(٤) حصول في ج
(٥) فهو فاعله ، كان مفعولاً في ج
(٦) غير موجودة في ج
(٧) ساقطة من ج
(٨) نبيه ﷺ في ج
(٩) جل من قائل في ج
(١٠) ٣ و ٤ ، العلق
(١١) قسم بآلاتها في ج

يَسطـُرون[1] » . فاذن الـكتابة نعمة من نعم الله تعـالى ولها مزية[2] حسنة عند ذوي الألباب ، لأنها تحفظ ما يتولد[3] عن أفهام العقلاء ، وتقيد ما تصطاده أذهان الحـكماء . فأثر[4] الكتابة يدل على المقولات[5] الملفوظة المعبر عنها ، وتلك المقولات تدل على المعاني الروحانية المعقولة المكنونة في الحروف اللفظية التي هي وراء الأشـكال والنقوش والأمثلة ، وتلك المعاني تدل على مواهب الله سبحـانه ونعمه التي تـكمل نفوس العبـاد وتسعدهـا في يوم المعاد ؛ فان الله « جامِعُ النَّاس لِيومٍ لا رَيْبَ فيه إِنَّ اللهَ لا يُخلِفُ الميعاد[6] » .

---

(١) ١ و ٢ ، القلم (٢) مرتبة

(٣) تتولد في أ (٤) فآثار في ب و ج

(٥) المقولة في أ ، المعقولات في ج (٦) ٩ ، آل عمران

الفصل الثاني

في[1] الكتابة المنسوبة إلى الله تعالى وأحوال[2] كتبه

اعلم أن الله عز وجل ، كتب كتاباً قبل أن يخلق[3] السموات والأرض ، وهو عنده : إن رحمتي سبقت غضبي . بهذا[4] أخبر رسول الله ﷺ ؛ وأن كتابة الله ليست بالقلم الجسماني ، ولا على اللوح البدني[5] ، بل لكتابته ثلاث مراتب :

أولها : الابداع ، فان الله سبحانه أبدع السموات دفعة واحدة بالفطرة الأصلية[6] لا بجمع[7] المواد وتركيبها بالدفعات ، وترتيبها وتنميتها[8] بالمطعومات . بل أبدعها دفعة واحدة بلا مدة،

---

(١) الثاني في ج

(٢) وأصول كتابه

(٣) خلق في ج

(٤) هكذا في ب و ج

(٥) المرئي في ب و ج

(٦) الالهية في ج

(٧) بجميع في أ

(٨) تنقيتها في ب وهي ساقطة من ج

ولا مهلة ، كما قال جل ثناؤه : « بَدِيعُ السموات والأرضِ ، فاذا قَضَى أمْراً فانما يقولُ له كُنْ فيكون[1] » . فقوله إيجاده وإبداعه ، وكتابته قوله[2] ، فاذا صدر الابداع عن أمره[3] يكون قولاً ، فاذا وصل إلى المحل وظهر المبدع يكون كتابة[4] . وحروف المكتوب أشخاص الأفلاك ، وكلمات المكتوب أجسام الأفلاك .

فالعالم إذن كتابة أمر[5] الله تعالى لا حقيقة قول الله[6] . لأن قوله إظهار كلامه ، وكلامه صفة ذاته ، وصفاته قديمة ، وكلامه قديم ، وقوله قديم . والعالم ليس بقديم وهو محدث ، والكتابة أثر ظهر عن القول القديم وهي حادثة . والعالم مع أنه مكتوب بخط صنع الاله عن يد قدرته حادث مبدع محدود متناهٍ[7] .

فاذن أول مرتبة من مراتب كتابة الله تعالى الابداع .

---

(١) ٦٨ ، غافر
(٢) ناقصة من أ
(٣) قوة في ج
(٤) كتابته في أ
(٥) ناقصة من ب و ج
(٦) غير موجودة في ج
(٧) ومتناه في ج .

والمرتبة الثانية : إلقاء لطائف[١] الحكمة، ومعاني الكلمة، في[٢] قلوب الأنبياء بالوحي ، وفي قلوب الأولياء بالالهام، وذلك بالتفهيم[٣] والتعليم[٤]، وفي قلوب المؤمنين بالنور[٥] والشرح والتوفيق والهداية والتأييد .

وقد أخبر[٦] عن هذه الحالات في القرآن بالآيات[٧] ، وفي الأخبار بالإشارات . كما ورد في الأخبار أن الله تعالى كتب التوراة لموسى بخطه[٨] ، وقال فى القرآن : « أولئِكَ كَتَبَ في قُلوبهم الإِيمان[٩] » . وقال : « كَتَبَ اللهُ لأغْلِبَنَّ أنا ورُسُلي إنَّ اللهَ قويٌّ[١٠] عزيز[١١] » . وأمثال هذه . وقال عز وجل: « الرَّحمن عَلَّمَ القُرآنَ خَلَقَ الانْسان علَّمهُ البيَان[١٢] » .

---

(١) لطايف في ب

(٢) و في أ

(٣) بالتفهيم في أ

(٤) وتعلم في أ

(٥) ناقصة من ب

(٦) اجتمع

(٧) في الآيات في أ

(٨) بيده في ب و ج

(٩) ٢٢ ، المجادلة

(١٠) الآية « إن الله ... » لا توجد في ب و ج

(١١) ٢١ ، المجادلة

(١٢) ١ و ٢ و٣ ، الرحمن

فالانسان يمكن أن يكون نوع الآدميين ، فان الله جل ثناؤه[1] علمهم العلم ، وعلمهم البيان باللسان وبالقلم .

ويمكن أن يكون الانسان[2] محمداً عليه السلام[3]، فان[4] الله[5] تعالى[6] علمه القرآن ، وكتب معانيه في قلبه ، ثم أوحى اليه بواسطة جبريل وأمره[7] بالبيان عن المسموع[8] المعلوم بلسانه لأمته وأصحابه ، كما قال سبحانه وتعالى[9] : « وإنَّهُ لَتنزيلُ ربِّ العالمين ، نَزَلَ بِهِ الروحُ الأمينُ على قَلْبِكَ لتكونَ مِنَ المنذِرين ، بلسانٍ عربيٍّ مُبين[10] » .

فالوحي بمنزلة اللوح ، والقرآن فيه[11] بمنزلة المكتوب المنظوم[12] ، والنبي ﷺ[13] طالع لوح الوحي ، وقرأ من

---

(١) وتقدست أسماؤه في ب (٢) يحصى في ب ويخص سيدنا في ج

(٣) صلى الله عليه وسلم في ب (٤) ناقصة من ب

(٥) والله في ب ، تبارك في ب و ج

(٦) وتعالى في ج (٧) أمره في أ

(٨) المسمع في ج (٩) غير موجودة في ب

(١٠) ١٩١ ، الشعراء (١١) ساقطة من ج

(١٢) غير موجودة في ب و ج (١٣) عليه السلام في ب

المكتوب المنظوم ، وبلغه إلى أُمته . والله تعالى أمره بالقراءة ، والقراءة تكون بعد كتابة[1] ، فقال تعالى : « اقْرأ باسمِ ربّكَ الذي خلَق ، خلَق الانسانَ مِنْ علَق°[2] ».

والمرتبة الثالثة : مغفرة ذنوب المؤمنين ، وإظهار الرحمة على المسلمين . فان الله سبحانه أوجب على جوده بكمال كرمه وعنايته ، أن يرحم المؤمنين .

وأوله بمنزلة الكتابة والسجل ؛ فان الانسان إذا ادعى على أحد بدين قِبَله[3] لا يسمع مجرد دعواه ، وإذا كان معه سجل محكوم عن قاض من قضاة المسلمين تصح[4] دعواه ، ويحصل ماله ، بسبب ذلك المكتوب . (فالله تعالى وعد المؤمنين برحمته ؛ ولم يكتف بموعوده[5] فأخبر عن السجل فقال : « كَتَبَ ربكُمْ على نفْسِهِ الرحمة[6] » ليطمئن قلوب المؤمنين باستماع المكتوب) .

---

(١) قراءته في ب

(٢) ناقصة من أ ، ١،العلق

(٣) ناقصة من ب و ج

(٤) يصح في أ

(٥) بوعده في ب والعبارة من (فالله ... المكتوب) ساقطة من ج

(٦) ٥٤ ، الأنعام .

ثم أظهر كتابته في درج محسوس ، ودفتر مجسم ملموس ، تصحيحاً لظنون المؤمنين . وذلك الدفتر والدرج هو شخص محمد ﷺ ، فقال عز وجل : « وما أرْسلناكَ إلا رَحمةً لِلعَالمين[1] » . فمن قبل شرعه ، واتبع دينه ، وأطاع أمره ، فهو في الدنيا مرحوم ، وفي الآخرة مسعود[2] منعم مكرم أبد الآبدين، برحمة رب العالمين.

وما كان محمد[3] بذاته رحمة[4] ، بل كان بنبوته[5] وبشريعته[6] رحمة[7] . ونبوته ما كانت مختصة بل كانت شاملة لجميع[8] الأنبياء صلوات الله عليهم[9] . كما قال سبحانه : « لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ من رُسُلِهِ[10] » . وهو خاتم النبيين وأفضلهم . والله تعالى أعطى لكل نبي من كلامه كتاباً ، ومن قوله

---

(١) ١٠٧ ، الأنبياء

(٢) ساقطة من ج

(٣) محمد ﷺ في ج

(٤) رحمته في أ

(٥) بنبوته رحمة في ج

(٦) وشريعته في أ و ب

(٧) رحمته في أ

(٨) بجميع في أ

(٩) وسلامه في ب

(١٠) ٢٨٥ ، البقرة .

خطاباً ، فلله[1] كتب غير معلومة ، ومكتوبها قديم غير منحول[2] ، والقرآن أكملها وأشرفها ، ومحمد[3] ﷺ مبلغها ومبينها[4] ومعيارها وميزانها . كما قال جل ثناؤه : « اللهُ[5] الذي أنزلَ الكتابَ بالحقِ والميزان[6] » . وقال ﷺ : « أنا ميزان العلم ، وعليٌّ لسانه » .

واعلم أن كتابة الله سبحانه هي[7] الابداع وإلقاء الوحي والإلهام للمؤمنين وبعث محمد ﷺ وحفظ شرعه إلى يوم الدين. لا مغير لشرعه ، ولا مبدل لحكمه ، ولا علة في قوله ، ولا آلة لكتابته . والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والكافرون هم الظالمون لأنفسهم ، المحرومون في الدنيا من مطالعة كتابة[8] الله ، وفهم آياته الطاهرة[9] في ألواح الآفاق ، ودفاتر الأنفس ، كما أمر الله سبحانه بقوله[10] : « قُلِ انظُروا ماذا في[11]

---

(١) جل وتعالى في ب ، وعز وجل في ج
(٢) منحولة في ب وساقطة من ج
(٣) وسيدنا محمد في ج
(٤) مثبتها في أ
(٥) والله في ب
(٦) ١٧ ، الشورى
(٧) في ، في ب
(٨) كتاب في ج
(٩) الكاملة في ج
(١٠) يقول في ب
(١١) مافي السموات في أ و ب وصحتها ما أثبتناه .

السموات والأرض[1] » . وقال تعالى : « وفي أنفُسِكم أفلا تُبْصِرون[2] » . وقال[3] تعالى : « سنُريهمْ آياتنا في الآفاق وفي أنفُسِهم[4] » .

فالمنافقون ؛ محرومون في الدنيا من[5] ملاحظة كمال[6] آيات الله وكتبه المسطورة[7] بالقلم الإلهي الذي لا تدرك[8] الأبصار[9] ذاته ولا حركته[10] ولا اتصاله بمحل الخط ؛ وفي الآخرة من سماع[11] كلام الله تعالى وأقاويله ولذيذ خطابه الكريم : سلام قولاً من ربٍّ رحيم .

فالمؤمن يعرف ربه بكتابته[12] ، والعارف يعرفه[13] بكلماته ، والكافر موقوف على حرف ، ولا معنى للحرف . قال الله تعالى : « ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَعبُدُ اللهَ على حَرْف[14] » .

---

(١) ١٠١ ، يونس
(٢) ٢١ ، الذاريات
(٣) جل و في ب
(٤) ٥٣ ، فصلت
(٥) عن في ب
(٦) جمال في ب
(٧) المسطرة في ب
(٨) يدرك في أ
(٩) بالأبصار في أ
(١٠) ناقصة من أ
(١١) ناقصة من أ
(١٢) بكلماته في ج
(١٣) يعرف ربه في ب
(١٤) ١١ ، الحج

الباب الخامس

في الغرض المطلوب

وفيه خمسة فصول :

الفصل الأول

اعلم أن أكثر الناس اختلفوا في الحروف ، فقال بعضهم : إنها قديمة ، لأن الحروف[1] واقعة في كتب الله[2] المنزلة ، ولا بد في الكلام منها . والله تعالى متكلم بالحروف ، و كلامه قديم ، فلا يشك[3] أن الحروف قديمة . فاذا كانت الحروف قديمة ؛ فسواء تقع في كلام الله تعالى ، أو في كلام الآدميين ،

---

(١) الحرف في ب وعبارة « لأن الحروف » ساقطة من ج

(٢) عز وجل في ب (٣) تشك في أ

فحكمها في جميع المقولات حكم واحد . وقالوا : إنها لا تندرج تحت الخلق والإبداع ، بل إنها من قبيل الكلام المنسوب إلى جهة[1] الباري تعالى . وهو قادر أن يتكلم بالصفة ، ويقول هذه الحروف ، من غير أن يحتاج إلى الآلات[2] والمخارج ؛ فان الانسان يحتاج إلى الآلات[3] ، لأنه مركب من جسم[4] لماني[5] كثيف ، وروح[6] نفساني لطيف ، والروح الإنساني[7] مستور بحجاب الشخص المظلم ، فيحتاج في تصرفاته إلى آلات[8] توافق الشخص لينال حقائق الأشياء وصورها بوسائط تلك الآلات[9].

كما أن الانسان يحتاج في إدراك صور المحسوسات إلى حاسة[10] البصر ، وحاسة البصر[11] تستدعي الحدقة والعين ،

---

(١) صفة في ج
(٢) الآلة في ج
(٣) الآلة في ج
(٤) جنس في ج
(٥) هكذا في الأصل
(٦) والروح في أ
(٧) وروح الانسان في ب و ج
(٨) الآلات في أ وآلة في ب ولعلها آلات
(٩) آلات في أ
(١٠) الحاسة في أ
(١١) والبصر وحاسة في ج

وجرم العين مركب من سبع طبقات ؛ وثلاث رطوبات . وهي : الطبقة العنكبوتية ، والقرنية ، والغبية ، والمشيمية ، والصلبة[١] ، والشبكية ، والملتحمة ؛ والرطوبة[٢] البيضية ، والزجاجية ، والجليدية[٣] .

وكذلك يحتاج في الاستماع بحاسة السمع إلى الأذن[٤]؛ والأذن[٥] مؤلفة من غضاريف ، وعضب مجوف .

وكذلك يحتاج في القول[٦] إلى الحنك واللسان والشفتين والأسنان ، وهي مؤلفة من أعصاب وغضاريف وعضلات.

ولا شك أن الله تعالى منزه عن هذا ، وأنه تعالى[٧] يدرك جميع الموجودات بلا آلة ولا حدقة ، ونحن نراها بآلات[٨]. وكذلك يسمع جميع الأصوات والكلمات من غير أذن مجوف[٩] ، ونحن

---

(١) الصلبة في أ (٢) الرطوبية في أ
(٣) الجلدية في ب (٤) الآذان في ب
(٥) الآذان في ب (٦) القول يحتاج في ب و ج
(٧) العبارة «منزه.. تعالى» ناقصة من ب (٨) بآلة في أ و ج
(٩) مجوفة في ج

نسمع بالآذان . وهو أيضاً سبحانه قادر على أن يتكلم بجميع الكلمات من غير آلة وحنك[1] ولسان ، ونحن نتكلم بالآلات[2] والمخارج . فهذا قول[3] جماعة من عقلاء الحنابلة .

وقال قوم[4] آخرون : ان[5] الحروف محدثة ، لأنها تقطع[6] الأصوات وتشكلها بأنواع الأشكال المختلفة . ويظهر اختلافها عند المخارج وهي أصداف المعنى[7] . والمعاني المعراة عن الحروف كاملة بذواتها ، منقوشة في النفوس الانسانية . ولا تحتاج تلك المعاني إلى الحروف ما دامت مستقرة في أصل النفس . فاذا حان وقت إظهارها بسبب إفادة المستمعين ، تستدعى الحروف لترتيب الكلمات ونظم الأقوال .

فكلام الله تعالى صفة ذاته ، لا تركيب عبارة ، ولا تأليف[8]

---

(١) حنك في ج (٢) بالآلة في ج

(٣) فهذه أقوال جماعة من عقلاء الحنبلية في ج

(٤) ساقطة من ب (٥) ساقطة من ب

(٦) قطع في أ (٧) المعاني

(٨) تألف في أ

حروف ؛ فانها تقع تحت الزمان ، وتظهر بدفعات[١] المدة .
والله تعالى منزه عن عوارض الزمان ، والتكلم بالحنك واللسان،
فكلامه[٢] صفة ذاته ، والصفة لا تفارق[٣] الموصوف بوجه من
الوجوه ، ولا في وقت من الأوقات . وإذا أراد أن يتكلم ،
يوحي[٤] معاني كلامه إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام ، ويلقي
في قلوبهم نور الوحي بواسطة روح القدس ، حتى يعبر الشارع عن
كلام الله سبحانه وتعالى بلسانه ، ويتكلم عنه ببيانه . كما قال سبحانه :
« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ على قَلْبِكَ لتكونَ من المُنْذِرين
بلسانٍ عربيٍّ مُبين » .

والحروف تقع في كلام الله[٥] عند عبارة النبي عليه السلام[٦]
فتكون الحروف آلة[٧] محدثة ، والكلام صفة قديمة ، وإذا زالت
المحدثة لا تزول صفة القديم بزوالها .

وهذا قول جماعة من الشافعية وهم الأشعرية[٨] .

---

(١) ساقطة من ج
(٢) وكلامه في أ
(٣) لا تفارقه في ج
(٤) يتكلم الذات في ج
(٥) تعالى في ب
(٦) ﷺ في ب ، وآله في ج
(٧) ساقطة من ج
(٨) الأشاعرة في ب

وقال قوم[1] آخرون من أهل السلامة : إن الحروف إذا وقعت في كلام الله[2] — أعني القرآن — تكون قديمة لحرمة كلام الله تعالى ؛ وإذا وقعت في كلام الآدميين تكون محدثة . وهذا كلام[3] ضعيف حقير لا أصل له[4] ، لأن الشيء الواحد إما أن يكون قديماً ، وإما أن يكون محدثاً ؛ فمن[5] اعتقد أن الحروف تارة تكون[6] قديمة ، وتارة محدثة ، فقد اختل عقله ، وظهر جهله ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

فهذا كلام الفرقتين[7] اللتين هما معظم أهل الاسلام .

* * *

---

(١) ساقطة من ج

(٢) « كلام الله أعني» ناقصة من ب

(٣) قول في ج

(٤) لا أصل له ساقطة من ج

(٥) ومن في ب و ج

(٦) تكون في ب

(٧) الفريقين في أ

الفصل الثّاني

اعلم أن الله[1] خلق جسم الانسان من جملة تراب[2] الأرض ؛ من الطيب والخبيث ، والصلب والرخو ، والأحمر والأسود والأبيض ؛ وأتقن لـكل شخص تركيباً معيناً ، وتأليفاً خاصاً[3].

تولد من ذلك[4] التركيب والتأليف مزاج مخصوص به ، متصرف فيه على حال حد[5] طبيعته ، ومقدار طاقته[6] ، وقوته . وليس هذا الأمر مختصاً بالانسان ، بل يشمل جميع المخلوقات من الحيوانات والنباتات والجمادات . ثم كل شخص يقبل النفس على[7] مزاجه

---

(١) جل ثناؤه في ب و ج (٢) وجه في ب و ج

(٣) تركيب مبين وتأليف خاص في ج (٤) ذاك في ج

(٥) حد ناقصة من ب ، والعبارة في ج « وتصرف على حال طبيعته »

(٦) عبـــارة « ومقدار طاقته » مكررة في أ

(٧) على قدر في ب و ج

واستعداده ؛ فكلما[1] يقرب المزاج إلى الاعتدال يكون الاستعداد أكثر ، وكلما زاد الاستعداد تكون[2] النفس أقوى. ومن قوة النفس تكون[3] قوة العقل ، ومن قوة العقل يكون[4] حسن التدبير ، ومن حسن التدبير يكون نظام العالم . فالمادة التي قبلت العرشية ما نقصت عن قوتها شيء[5] ، ولا زادت عليها ؛ إذ لا بخل من واهب[6] الصور ، ولا منع منه ، ولا ميل . فبمقدار قبول المراد تهيأت الصور ؛ وذلك بتقديره وعنايته[7] .

ولما اتفق[8] أن مزاج الإنسان كان أقرب إلى الاعتدال من سائر الأمزجة ، كانت صورته أحسن من جميع الصور[9] ، وظهرت قوى[10] النفس في أشخاص الناس أكمل وأقوى مما في

---

(١) وكلما في ج
(٢) يكون في أ
(٣) يكون في أ
(٤) يتولد في ج
(٥) شيئاً في ج
(٦) وأب في أ
(٧) العبارة « فبمقدار ... وعنايته » في ج « في مقدار قبول المواد تهب الصور وكذلك بتقبيله وقعنا بتقدير وعناية .
(٨) اتفقوا في ج
(٩) وأقوى في ج
(١٠) قوة في ج

غيرها[١] . ثم[٢] جميع الناس أيضاً لم يقفوا في مرتبة واحدة ، بل لكل واحد مزاج وبنية . وهذه المعاني توجد في حواس[٣] الناس ؛ فواحد يكون بصره أحد ، ولفظه أبين ، وسمعه أقوى ، حتى[٤] يرى ويسمع ويتكلم ضعف ما يرى ويسمع غيره من نوعه . وربما يكون شخص واحد[٥] يسمع ويتفكر ويقول ويعمل بيده عملاً وينشىء[٦] كل ذلك في حالة واحدة[٧] ، بحيث لا يغلط ولا يشغله ويمنعه شيء عن[٨] شيء . وآخر ضعيف الحال سمعه يمنعه عن البصر ، وفكره يمنعه عن القول . وإذا وجدنا هذا التفاوت بين إدراك الظواهر ، فلا نشك[٩] أن التفاوت في الخواطر والأفهام والصفات أكثر ، لأنها أدق وأصعب . وإن[١٠] كان التفاوت لازماً بين بصائر الناس وأفكارهم

---

(١) من جميع الناس في ج
(٢) ثم في في أ
(٣) بحواس في ب
(٤) من حيث في ب و ج
(٥) شخصاً واحداً في ج
(٦) ويمش في ب و ج
(٧) معاً في ب و ج
(٨) ساقطة في أ
(٩) فلا شك في ج
(١٠) وإذا في ب و ج

وأذهانهم ، فربما يكون[1] بصيرة واحد من النـاس أقوى من بصيرة غيره ، حتى أن واحداً يتصور ألف مسألة في أقل مدة من الزمان بقوة حدسه ، وصفاء[2] فكره . وآخر يتعب نفسه[3] جميع عمره ، في تحصيل علم ظاهر ، أو[4] تصور مسألة ضعيفة[5] ، فلا[6] يقدر على ذلك . وجميع اختلاف الناس[7] في أمر الدين تولد من هذه الأحوال وبهذه الأسباب المذكورة ؛ وهذه مسألة صعبة[8] مشكلة ، تستدعي شرحاً طويلاً لا يحتمله هـذا الكتاب . وقد شرحنا هذا في مواضع أُخر .

فاذا عرفت هذا ، فاعلم : أن النفوس النواطق متفـاوتة ، والبصـائر مختلفة ، والقوى بحسب النفوس ، والتصور بحسب البصائر ؛ ومن رضي لنفسه[9] بالجهل فقد حرم مرتبة الإنسانية ،

---

(١) تكون في ج — (٢) اصفاء في أ

(٣) في في ب — (٤) و في أ

(٥) خفيفة في ج — (٦) ولا في ج

(٧) ساقطة من ب — (٨) صفيفة في ب

(٩) ساقطة من أ

وسيصير شيطاناً بالفعل ، فان « شَرَّ الدّوابِّ عندَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الذينَ لا يَعقلون[1] » ، الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم .

واختلاف الناس في كلام الله[2] وأحوال الحروف ، دليل على تفاوت أمزجتهم وبصائرهم[3] ، وضعف رويتهم في العلوم[4] الحقيقية ، وكثرة انهماكهم في البحار الشهوانية[5] ، واستغراقهم في كدورات[6] الأوهام الظنية ، وتلبيسات القوة الخيالية . فواحد يرضى عن نفسه أن يتصور قدم الحروف ، وآخر[7] يقنع بأن يسمع حدوث الحروف من غير كشف وبيان عن حقائقها وماهياتها ، وآخر يتصور أنها تارة قديمة وتارة محدثة . ولا شك أن حكم الحروف ، وكلام الله تعالى قد ظهر عند النفوس ، وفرغت العقول عنها وعن كيفيتها . ولكن وقع

---

(١) ٢٢ ، الأنفال
(٢) الله تعالى في ج
(٣) وتناءت بصائرهم في ج
(٤) علوم في أ
(٥) الشيطانية «إضافة» في ب و ج
(٦) ناقصة من ب و ج
(٧) واحد في أ

الأمر بين متكلم[1] ظني ، ومتوقف حسي . وحقيقة الأمور وراء الحواس والظنون ، ولكن الغالب على بعض الناس لذة المحسوسات ، وعلى بعضهم قوة المظنونات ، وعلى بعضهم أغراض[2] الجدل ؛ فأعرضوا عن بيان العقل ، وتصاموا عن[3] استماع الكلام بالعقل ، فهلكوا بمقارنة الشياطين[4]. كما قال الله تعالى: « وَمَنْ أعْرَضَ عنْ ذكري فانَّ لهُ معيشةً ضَنْكا ونحشُرهُ يومَ القيامةِ أعمى[5] » . وقال سبحانه : « وَمَنْ يعْشُ عَنِ ذكْرِ الرَّحمن نُقيض لهُ شيطاناً فهُو لهُ قَرين[6] » .

* * *

---

(١) متوقف حسي ومتكلم ظني في ب و ج

(٢) اعراض في ب (٣) ساقطة من ج

(٤) الشيطان في ب والعبارة في ج « فهكذا يقارنه الشيطان »

(٥) ١٢٤ ، طه (٦) ٣٦ ، الزخرف

الفصل الثالث

اعلم أن مرادنا من شرح القول والنطق والكلام تنبيه الغافلين المرتابين في كلام الله تعالى وكتابه الذي لا ريب فيه، وتخويف الظانين بالله ظن السوء. وغرضنا في بيان[1] تفاوت الأمزجة، والترقي إلى هذه الدرجة، تقرير[2] القول في أشكال الحروف وحقائقها، وعذر الشاكين في كيفيتها، فان كل إنسان يتصور[3] على حد عقله، ويفهم بقدر تصوره، ويعبر عنه بمقدار فهمه.

ولا نشك[4] أن الحروف أشكال، ونقوش، وأمثلة من[5] حقائق روحانيات.

---

(١) ناقصة من أ

(٢) تقريب في ب و ج

(٣) يتصرف في ج

(٤) ولا شك في ج

(٥) و في أ

وأما شكل الحروف : فيوجد بحاسة البصر إذا نقش على الألواح ، ويدرك بحاسة السمع إذا قيل بالألسنة[١] .

وأما أمثال[٢] الحروف : فهو ما يخرج[٣] من المخارج،وينتقل[٤] من[٥] الفكر إلى القول .

وأما حقيقة الحرف[٦] : فصورته المجردة المركوزة[٧] في ذهن الانسان وحفظه ، وتلك الصورة لطيفة معراة عن الشكل الحسي[٨] والنقش الجسمي[٩] . [١٠]فالألف لطيف بصورته في حفظ الانسان ، وكثيف بعد قبول الشكل والنقش . وذلك أن الألف صورة لطيفة ، معراة عن الشكل الحسي ، والنقش الجسمي . فالألف صورة لطيفة روحانية في غاية الدقة[١١]

---

(١) بالألسن في ج
(٢) مثل في ج
(٣) يخرج في أ
(٤) تنتقل في أ
(٥) عن في ج
(٦) الحروف في ب
(٧) المذكورة في ج
(٨) أشكال الحس في ج
(٩) ساقطة من ج
(١٠) في ج عبارة زائدة « وذلك أن الألف صورة لطيفة روحانية في غاية كذا والطول الذي لا عرض له يستخرج شكلاً ويسمى حينئذ خطاً ».
(١١) ناقصة من ب

والطول[1] الذي لا عرض له : يخرج[2] عنه شـكل ويسمى حينئذ خطاً ، وهو منبع الحروف كالواحد في علم الحساب أصل الأعداد ، والخط[3] في علم الهندسة أصل الاشكال . وأما الألف المحسوس المرقوم المنقوش[4] ، فهي حكاية تلك الصورة اللطيفة الروحانية ، ولا يكون هذا ذلك ؛ لأن هـذا[5] الشكل والنقش لو يمحى أو يحرق أو يغسل لا يبطل تلك الصورة التي في الأرواح .

فقد بان بهذا[6] أن حقيقة الحرف[7] هي الصورة اللطيفـة التي لا تنقش إلا[8] على ألواح الأرواح ، ودفاتر القـلوب ، في خزانتها[9] الحافظة التي في مؤخر الدماغ ، والقوة الذاكـرة تصرفها ، فتعين لـكل حرف صورة تخصه[10] بلا امتزاج ولا غلط ولا وقوع آفة .

---

(1) الطول في ب
(2) يستخرج في ب
(3) خط في أ
(4) المنقوش المرقوم في ب و ج
(5) ســاقطة من ج
(6) ناقصة من ب
(7) الحروف في ج
(8) ساقطة من ج
(9) لخزانتها في أ
(10) محضة في أ

فالحروف في حال التفكر لطيفة ، وفي حال التذكر كثيفة .

فهي كثيفة بوجه ، لطيفة بوجه ، فاذا كتبت ورقمت تكون في الدفاتر كثيفة بكل وجه ، والشيء الكثيف مركب يقبل التحلل والفساد ، والقابل للكون والفساد متغير[1] مضمحل غير قائم بذاته .

وأما الشيء اللطيف بالحقيقة فهو فرد غير مستحيل ولا مركب من مواد مختلفة ، بل هو جار في أُصول النفوس ، وجواهر القلوب ، دهراً بعد دهر ، وقرناً بعد قرن.

فالحروف الحقيقية هي صور لطيفة روحانية[2] جارية[3] في أفكار ذوي العقول ، وقلوب ذوي الألباب بالانتقال الأفضل لا[4] بالفساد الأخس . وقل ما تدرك هذه الرموز التي هي كنوز الحقائق .

---

(١) عبارة « والقابل ... متغير » ساقطة من ج
(٢) روحانيات في أ (٣) جاريات في أ
(٤) ساقطة من ج

الفصل الرابع

اعلم أن القدم على وجوه : قدم بالزمان ، وقدم بالشرف[١] ، وقدم بالمرتبة ، وقدم بالمكان ، وقدم بالذات[٢] .

فالقديم[٣] الحقيقي الذي لا بداية لوجوده ، ولا نهاية لبقائه ، هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد .

وأما القديم[٤] بالمرتبة : فهو جوهر العقل الكلي ، الذي هو أول الموجودات — يعني المحدثات[٥] — وهو قلم كلمات الباري تعالى ، وهو قديم برتبة[٦] ذاته ، ومحدث بنسبة خالقه .

وأما القدم[٧] بالشرف : فهو قدم الإنسان على النبات والحيوان؛ لأنه أقدم بشرف النطق .

---

(١) بالصرف في ج (٢) بالذوات في ج

(٣) فالقدم في أ (٤) القدم في أ

(٥) يعني المحدثات ناقصة من ج (٦) بمرتبة في ب و ج

(٧) القديم في ب

وأما القدم[1] بالمكان : فمثل مصر وبيت المقدس ؛ فانهما أقدم في موضعهما[2] من سائر الأمكنة .

وأما القدم[3] بالزمان : فالأفلاك ؛ فانها[4] أقدم من الأرض وما[5] عليها ؛ لأن الزمان عدد حركات[6] الفلك[7] بعد الحصر ، والدهر حركات الفلك قبل العدد والحساب ، ولهذا قيل إن الدهر أصل الزمان ، لان الزمان ممتد مع السفليات . والدهر ممتد مع العلويات . وكل للباري تعالى صفة ذاته ، وذاته قديمة بالحقيقة ، وبعض صفاته مثل ذاته في مرتبة القدم.

وأما القدم[8] بالشرف والمرتبة والزمان[9] فالنبوة[10] الجارية في أشخاص الأنبياء عليهم السلام ، كجريان الشمس في برج[11] الفلك . والنبي[12] أقدم بالشرف والمرتبة[13] من سائر الناس ،

---

(١) القديم في ب و ج (٢) ومنعهما في ج
(٣) القديم في ب و ج (٤) لأنها في ج
(٥) ومن في ج (٦) حركة في ج
(٧) الأفلاك في ج (٨) القديم في ب و ج
(٩) ساقطة من ج (١٠) والنبوءة في ج
(١١) بروج في ب (١٢) فالنبي في ب
(١٣) في المرتبة في ج

ومتكلم[1] بوحي الله تعالى وتأييد روح القدس ؛ فانه : « ما ينْطِقُ عنِ الهَوى ، إِنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحى ، علَّمهُ شديدُ القُوى » .

وإذا كانت ذات النبي ﷺ قديمة[2] بالمرتبة والشرف ، أي هو خير من الأمة ، وأقوى[3] في علمه[4] تعالى من غيره ، فكلامه وقوله أيضاً أقدم بالشرف من سائر أقاويل الناس . فالحروف الواقعة في القرآن لم تنسب إلى الله تعالى تنزيهاً له ، فلا نشك أنها متولدة من[5] نفس الشارع عليه السلام ، وجارية على لفظه المطهر المشرف ، وجميع حركاته وسكناته منورة بنور الحي القيوم القديم .

فاذن عبارات[6] الشارع قديمة باضافة قول الناس ، ومحدثة

---

(١) وهو في ب و ج

(٢) العبارة في ب و ج « وإذا كان النبي ﷺ قديماً » .

(٣) وأقدم في ب و ج (٤) علم الله في ب و ج

(٥) عن في ب و ج (٦) عبارة في ج

بنسبة كلام الله تعالى . ولهذا المعنى قال[1] تعالى : « ما كُنْتَ تَدري ما الكتابُ ولا الإيمان[2] » باضافة ذاته . فهو[3] عليه السلام قال مع أصحابه : « أنا أعلمكم بالله ، وأفصحكم[4] ، وأعقلكم[5] » . فاذن حروف القرآن قديمة بالمرتبة لأنها واقعة في كتاب الله تعالى ، وأحكام الكلمات[6] الربانية جارية فيها ، فمن شرط التعظيم والإجلال ، تقديم حروف القرآن على سائر كلام[7] الآدميين . فالحروف إذا تركبت وانتظمت وكتبت[8] في المصاحف فحكمها حكم القرآن في الشرف والرتبة ، ويشرف[9] كلام الله تعالى القديم عليها حتى لا يمسه إلا المطهرون ، ويقال إنه تنزيل من رب العالمين .

---

(١) قال الله في ب و ج (٢) ٥٢ ، الشورى

(٣) وهو في ب و ج (٤) وأفصح من نطق بالضاد في ب

(٥) ورد حديث أنا أفصح العرب من حديث أبي سعيد الخدري . العراقي الاحياء ٢ : ٣٢٤

(٦) الكلمة في ج (٧) ساقطة من ج

(٨) ساقطة من ج (٩) نور في ب و ج

حكي عن بشر الحافي رحمه الله ، أنه وجد كاغداً في الطريق[1] ، فيه مكتوب « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فرفعه ، وطيَّبه ، وحفظه مع نفسه ، فرأى الله تعالى في المنام فقال له : رفعت اسمنا فرفعناك ، وعظمته فعظمناك . فظهر[2] عليه من الخير والطريقة الحسنة ما هو مشهور بين المسلمين .



(١) في عبارة « كاغداً في الطريق » تقديم وتأخير في ب و ج

(٢) وظهر في ب و ج

الفصل الخامس

لما رأينا اختلاف الناس في حروف كتاب الله تعالى ، قدمنا تحرير هذه الفصول على جميع الأصول ، وذكرنا فيها[١] من كل فن شيئاً مختصراً يشبه المقدمة ، طلباً لحصول النتيجة. وما ذكرنا شرح[٢] مخارج الحروف ، وكيفية حدوثها عن الهواء في الحناجر احترازاً من تطويل الكلام ؛ وقد يوجد مفروضاً في كتب[٣] المحققين .

وهذا القدر الذي كتبنا[٤] ، وذكرنا[٥] في هذه الأوراق ، نخبة أسرار غير مكتوبة ، وإشارات[٦] مكنونة ، ورموز

---

(١) فيه في أ

(٢) يشرح في ب

(٣) كتاب في ب و ج

(٤) كتبناه في ب و ج

(٥) وذكرناه في ج

(٦) اشارة في ب و ج

مستورة ، عبرنا عن كل سورة بآية ، واغترفنا من كل بحر قطرة ؛ والعاقل الحر تكفيه الاشارة . فـكم من عاقل كيس ينال الخير من العلم[1] القليـل[2] ، ما لا ينال الجاهل[3] البليد في[4] جميع العلوم عشر معشارها[5] ؛ وذلك فضل الله يؤتيه[6] من يشاء .

فعليك أيها الطالب[7] الحريص أن تتأمل[8] هذا الكتاب تأمل طالب متفـكر ، لا تأمل حسود متعنت متكبر ، حتى ترى العجائب ، وتنجو من الشوائب . ولا يحل أن يوضع الوَرْد بين الحمير ، ويطرح[9] الدر في فم الخنازير[10] .

واعلم أني ما كتبت هذا مفيداً واهباً ، بل كتبته مستفيداً

---

(١) علم في ب و ج
(٢) قليل في ب و ج
(٣) ساقطة من ج
(٤) من في ج
(٥) عشير في أ
(٦) يؤتي في أ
(٧) الأخ في ب و ج
(٨) يتأمل في أ
(٩) أو يطرح في ب
(١٠) الخنزير في ب . وهنا تنتهي مخطوطة ج .

طالباً . وغرضي من هذا عرض هـذا الحال على ذوي الأبصار والأسرار ، فالأسرار واجب صرفها عن الأغمار . أُعيذك[1] بالله، وأوصيك[2] في الله ، وآمرك أيها الطالب بتقوى الله . فاعرف، والزم ، وأنعم ، وأكرم ، وأحسن ؛ فان الله يحب المحسنين[3] وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

كمل الكتاب بحمد الله العزيز الوهاب



---

(١) أعيذكم في أ

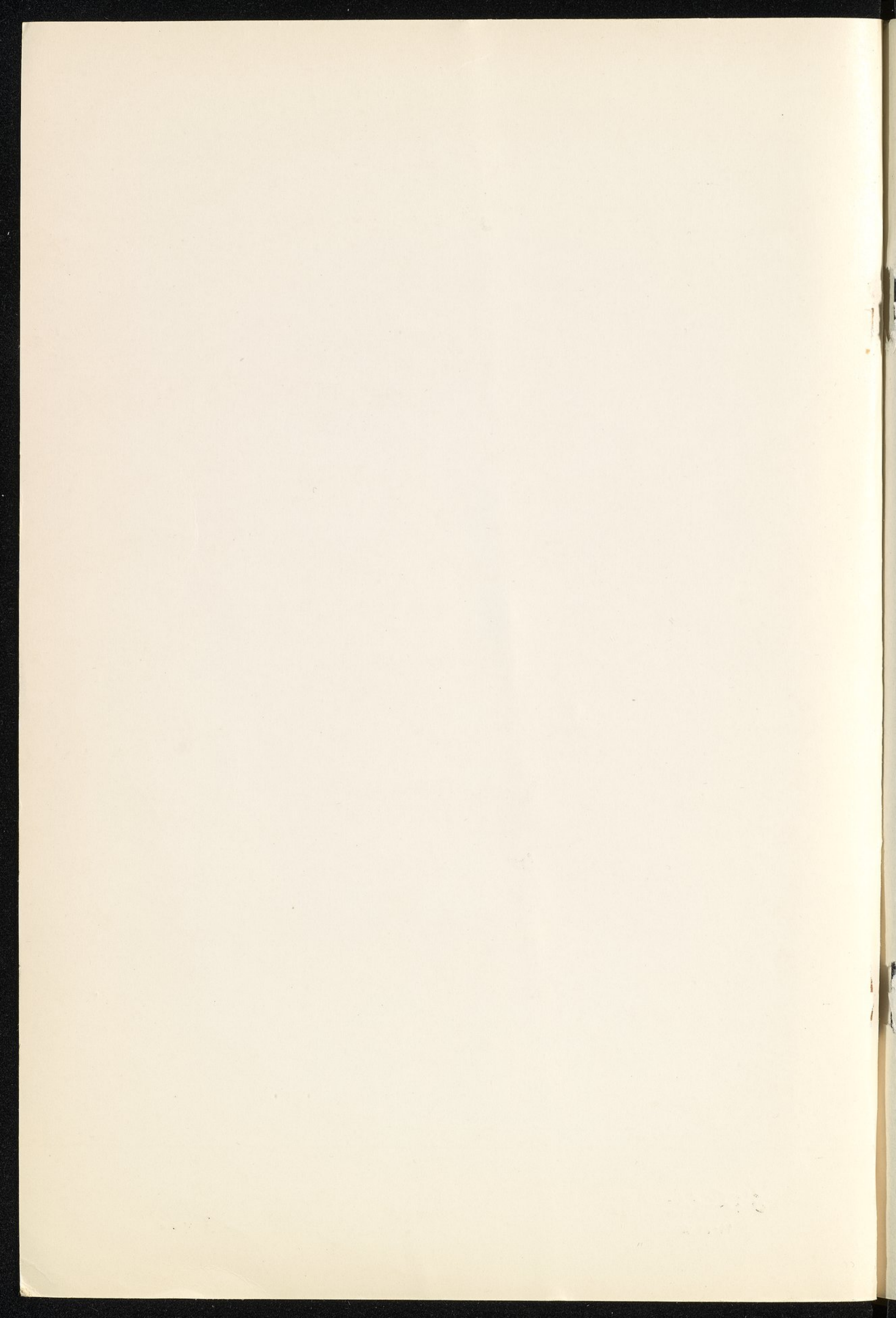
(٢) أوصيكم في أ

(٣) العبارة « يحب ... الله » سـاقطة من ب .

الفهرس

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢١	٦	الحسن	الحس
٣١	٩	لكتاب	الكتاب
٤٣	١٨	أورد	أورده
٨١	٣	بالتفهم	بالتفهيم



مطابع دار الفكر بدمشق
☎ ١١٠٤١

